المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

390

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

ياسمينة

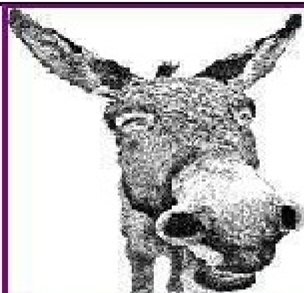
(وقصص أخرى)

تأليف: إيزابيل إبرهاردت

ترجمة: حسن دواس

مراجعة: د. ليلى عثمان فضل

أغسطس 2012



المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

ياسمينة

وقصص أخرى

تـــألـــيـــف: إيزابيل إبرهاردت

تـــرجـــمـــة: حسن دواس

مـــراجـــعـــة: د. ليلى عثمان فضل

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

:E.Mail

ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي13147

دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٧٧

ردمك: ٩٧٨-٩٩٩٠٦-٠-٣٦٩-٩

• ياسمينة
(وقصص أخرى)

العنوان الأصلي:

Isabelle Eberhardt

Yasmina Et Autres Nouvelles Eberhardt

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2012م

إبداعات عالمية - العدد 390

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

الإهداء

إلى الروح التي اعتنقت ليل

هذه الأرض وفجرها

وعشقت خفايا رمال هذه الصحراء

وسحرها

إيزابيل إبرهاردت...

وإلى كل المهتمين بالتراث الأدبي

والرحلي

لهذه الكاتبة المتميزة

والرحالة الفذة.

حسن

قبل أي كلام!

لا شك أن ثمة علاقة خفية، لذيذة وغامضة تتشكل خيوطها الشفيفة تدريجيا بين الكاتب والمترجم في تواتر متموج يشتد حينا ويفتر آخر، وفق استغراق المترجم في عمل الكاتب واستحواذ النص على مشاعره، خصوصا إذا كان العمل المترجم نصا أدبيا إبداعيا، لما يطفح به عادة هذا النوع من النصوص من عصارة فكر الكاتب، وعطر أحاسيسه، مستخلصة من أعماق النفس السحيقة ولب الروح المبدعة، المحلقة في عوالم التخييل المجنح.

وقد حدث لي هذا الانجذاب الآسر وتشكلت هذه الصلة المبهمة مع الأستاذ الشاعر الدكتور عبد الله حمادي وأنا أترجم مجموعته الشعرية «يا امرأة من ورق التوت»، وقبله مع الشاعر الأستاذ يوسف وغليسي وأنا منهمك في ترجمة «تباريح اللحن الأخضر»، لكن الأمر بدا لي عاديا، فالدكتور عبد الله حمادي أستاذي منذ العام ١٩٨٩، ويوسف صديقي منذ سنوات عديدة، وقد جمعتني بهما أروقة الجامعة ومنابر الملتقيات الأدبية، فصلتي بهما قبلية؛ قرأت لهما وسمعتهما وتأثرت بهما قبل ترجمة نصوصهما.

لكن ما حدث لي وأنا عاكف على ترجمة هذه النصوص للكاتبة والرحالة إيزابيل إبرهاردت مختلف تماما. ذلك أن اكتشافي لها ليس بالبعيد، لكن بمجرد قراءتي لكتاباتها المختلفة سواء الإبداعية أو الرحلية وبمجرد اطلاعي على بعض الجوانب من حياتها الأسطورية أحسست بانجذاب غريب ينمو وشغف بقراءة المزيد وترجمة المزيد، إذ أعتقد أن أحسن طريقة لقراءة نص ما هي ترجمته، ولولا انشغالي في هذه الفترة، وحتى كتابة هذه الكلمات بتحضير رسالة الماجستير لأكملت ترجمة بقية قصصها خاصة والتي لا شك أني سأعود إليها لاحقا بحول الله.

وتذكرت ما قاله كثيرون حول جاذبيتها وتأثيرها الساحر في كل من يقترب من عالمها الشائق المبهم.

فهذا محمد رشد؛ الباحث الجامعي المختص في إيزابيل وكتاباتها يعلن في محاضرة ألقاها بمناسبة إحياء ذكرى مئويتها بالمكتبة الوطنية بالجزائر في أكتوبر ٢٠٠٤: «لقد لعبت إيزابيل إبرهاردت دورا مهما، حتى لا أقول أساسيا في اهتدائي واندماجي في هذا البلد».

وهذه الفرنسية إدموند شارل رو رئيس أكاديمية جونكور تقول في حوار لها لجريدة ليبرتي (Liberté)، أجراه معها الطاهر حوشي: «صحيح، عملت لمدة ١٢ سنة على أعمال إيزابيل ولكن شغفي ظل نفسه. كل المواضيع تنتهي يوما ما إلى الملل واللامبالاة؛ غير أن الأمر مختلف بالنسبة إلى إيزابيل. الإعجاب دوما عنيف كما في اليوم الأول».

وذاك المارشال ليوثي الذي قال في كلمة بمناسبة وفاتها: «لقد فهمنا بعضنا البعض، أنا ومحمود المسكين، وسأحتفظ إلى الأبد بذكرى ممتعة لأحاديثنا المسائية، لقد كانت أكثر ما يشدني إلى العالم، كاسرة أشعة. أن تجد أحدا وهو حقيقة ذاته، بعيدا عن كل التعصب، عن كل الأكليشيهات، والذي يمر عبر الحياة منطلقا مثل طائر في الفضاء، يا لها من بهجة!».

أما المخرج الأسترالي يان برينغل (Ian Pringle) الذي أخرج فيلما حول حياة إيزابيل إبرهاردت فيقول: «عندما قرأت نصوصا حول حياة إيزابيل إبرهاردت، للمرة الأولى، هذه عشر سنوات تقريبا، لم أكن منجذبا ومنذهلا أمام هذه المرأة التي كانت حياتها قصيرة وغريبة فقط، لكن أحسست بنوع من القرابة معها كذلك».

ويضيف: «لقد كانت كل شيء: مهرجة، قديسة، بطلة، حسية، إعصار أنثوي والذي من عمقه تتدفق الحياة بلا انتهاء. كاتبة، مغامرة، ساذجة؛ ثائرة دوما، مدفوعة بقوى لا تفهمها، قضت حياتها القصيرة وهي تحاول التخلص من الفائض لتواجه الواقع».

إن كتابات إيزابيل إبرهاردت أثارت اهتمام الكثير من الباحثين والدارسين والفنانين الغرب، وعلى سبيل الذكر، فقد ترجم روبرت

بونونو Robert Bononno كتابها «رسـائل ويوميات» تحت عنوان: «سـبع سنوات في حياة امرأة، رسـائل ويوميات» (Seven Years in the Life of a Woman: Isabelle Eberhardt, Letters and Journals) ، وترجمـت شـارون بانغـرت، Sharon Bangert «تحـت ظـلال الإسـلام الدافئـة» (In the Shadow of Islam)، وصدرت في أكتوبر ١٩٩٤ عن أوون بيتر.

وصـدرت ترجمة أخرى بالإنجليزية في العام١٩٧٥ لصاحبها بول باولز Paul Bowles تحت عنوان: « الباحثون عن النسيان وكتابات أخـرى» (The Oblivion Seekers & Other Writings)، كمـا ترجمـت نينـا دي فوغـد Nina De Voogd اليوميـات تحـت عنـوان «الرحالـة - يوميات إزابيل إبرهـاردت» (The Nomad The Diaries of Isabelle Eberhardt) ، كمـا ترجـم ميغال فرونتان Miguel Frontán قصصها إلى الإسبانية.

أما بالفرنسـية فقد صدرت العديـد من الكتب عن إيزابيل، وتمت إعـادة طبـع أعمالها الكاملة وإدموند شـارل رو وحدها أصدرت ثلاثة كتب حول حياتها وأعمالها: شوق إلى الشرق - شباب إيزابيل إبرهاردت ، Désir d'Orient, (La Jeunesse d›Isabelle Eberhardt) ثـم «رحالة كنت»، السـنوات الأفريقية لإيزابيـل إبرهادت Nomade J'étais, Les Années Africaines D'Isabelle Eberhardt ثم «إيزابيل الصحراء» (Isabelle du Désert).

وهنـا أتسـاءل أيـن نحن مـن تراثنا ؟ أو لسـنا أحق مـن كل هؤلاء وأولئـك بإيزابيـل وإرثها الأدبـي والتاريخي والرحلـي؟ أين نحن من حب إيزابيل لهذه الأرض وشعبها ؟

لقد عشقت إيزابيل ليل الجزائر وفجرها، فغدت لا تتنفس هواء غيـر هوائهـا، ولا تفترش أرضـا غير رمـال صحرائها، عنابـة، باتنة، العلمـة، تلمسـان، الجزائر، الوادي، قمار، بوسـعادة، عين الصفراء... لا بقاع أرحب وأروع من هذه البقاع، مائها، رملها، سـمائها، شمسـها،

كان كل شيء، في عيون إيزابيل في الجزائر جميلا، ساحرا: «لقد مضى زمان طويل وأنا هنا، والبلد أخاذ إلى أبعد الحدود، وبسيط إلى أبعد الحدود، بتضاريسه ذات الرتابة المتوعدة، ليكون هذا التعلق وهما عابرا وجماليا، بالتأكيد لا، ما أسرني ولا سحرني إلى هذا الحد مكان آخر على الأرض كما فعلت فضاءات الوحشة المتحركة للمحيط الكبير الناشف، والتي من السهول الصخرية لقمار ومن منخفضات شط ملغيغي الملعونة تؤدي إلى صحارى سيناون وغدامس عديمة الماء».

نعم أحبت إيزابيل هذه الأرض، بكل جوارحها؛ كتبت عنها ولها، التحمت بروحها مع كل تفاصيل حياة شعبها وطقوس عيشه، تسربلت بسربال شعبها، اعتنقت دينها، تكلمت لغتها الرخيمة الشجية، واحتضنت تربتها الدافئة في نومتها السرمدية.

كتبت مرة ميريام بيرد (Miriam Beard) حول الرحلة الحقيقية وكيف تؤثر في العمق الإنساني فكرا وروحا تقول: «أكيد أن الرحلة أكبر من المشاهدة البصرية، إنها التغيير الذي يمضي قدما، عميقا ومستمرا في أفكار الحياة»، وإيزابيل من الرحالة القلائل إن لم أقل الرحالة الوحيدة التي جسدت هذا المعنى بهذا الشكل التام، وذاك التحول الفكري والروحاني الذي شكل منها إيزابيل أخرى، بامتداد حضاري آخر، وروح شرقية جديدة».

الأشياء، كل الأشياء ربما يعتريها الذبول، فتذوي، تندثر إلا حبها لصحرائها: «نعم أحب صحرائي، وفي حب غامض، خفي، عميق، يتعذر شرحه، ولكن حقيقي خالص وسرمدي».

إن حب إيزابيل للجزائر، ولقيم المجتمع الذي عاشت بين ظهرانيه لا غبار عليه، وقد حان الوقت لأن ينفض الغبار وتدحض الإشاعات التي حاكها البيوغرافيون الغرب حول شخصية إيزابيل، فلربما زال الشك من حول سيرتها وأفكارها في ذهن الجزائريين المتعصبين الذين تعودوا على النهل من مناهل ما وراء البحر. وهذا

المسعى، في اعتقادي مهمة الجميع من الدارسين والكتاب والمؤرخين الجزائريين خاصة الذين أهملوا شهادة هذه الرحالة، وأهملوا دورها كشاهدة على بدايات القرن العشرين من تاريخ الجزائر العام عموما والسوسيو الثقافي على الخصوص.

وإن شهادة الدبلوماسي الجزائري محمد الصالح دمبري التي كتبها في جريدة «الجزائر الأحداث» في العام ١٩٧٠ ونقلها محمد رشد في كتابه عن إبرهاردت، بادرة طيبة في الاتجاه السليم، لم تتبع بدراسات تعيد لإيزابيل اعتبارها وتمنحها المكانة اللائقة بها. يقول محمد الصالح دمبري عن إيزابيل وموقفها من الجزائر والمجتمع الجزائري: «كصحافية شغوفة، وجزائرية متحمسة، انغمست في تحليل الحياة الإنسانية في الجزائر في تلك الفترة، متهمة التمييز الذي تفرضه الشؤون السياسية الاقتصادية الجديدة، والسلب المخزي والفاضح للسكان الأصليين، أدانت عصر القواد والموظفين ذوي النفوذ المكلفين بتعمير الجزائر. لقد كانت متأكدة من إفلاس الاحتلال، ذلك أنه في حين كان لويس برتراند وأنصاره بنزعة رومانية يستحضرون كل ما هو لاتيني أو مسيحي، كانت هي تعيد وبقوة القيم العربية الإسلامية والتحام العالم العربي البربري».

إن هذه المجموعة والتي تضم القصص التالية: الغريمة، نحيب اللوز، ياسمينة، النقيب، تتباين مواضيعها وتختلف؛ تحاول من خلالها إيزابيل رصد الحياة وعادات المجتمع الجزائري وأحلامه وآماله ومعاناته، وتنبني قصصها غالبا على ثنائيات متناقضة متعددة، التقاء حضارتين، الحضارة العربية الإسلامية - الحضارة الغربية، المستعمر - المستعمَر، العامل - رب العمل، رجل الدين - المريدون، البؤس - السعادة وغيرها من الثنائيات، فقصة ياسمينة على سبيل المثال قصة حب تعالج من خلالها التقاء الغرب في شخص الضابط جاك بالشرق الممثل في شخصية ياسمينة، وفي الوقت نفسه هو التقاء واختلاف المستعمِر والمستعمَر في نمط

الحياة والتفكير وهو الصراع القائم بينهما، وتذكرني هذه القصة برواية «الجوهرة والأسد» (The Lion and the Jewel) للكاتب النيجيري صاحب جائزة نوبل بول سوينكا والذي من خلالها يعالج الصراع نفسه القائم بين الأفريقي والأوروبي.

و«ياسمينة» ما هي إلا خطوة أولى أردت من خلالها أن أساهم ولو بجزء بسيط في التعريف بهذه الكاتبة والرحالة وببعض أعمالها.

تقول إيزابيل: «لست سوى شخص غريب الأطوار، حالمة تريد أن تعيش بعيدا عن العالم، أن تعيش الحياة الطليقة والراحلة، لتحاول بعد ذلك أن تقول ما رأت وربما أن تنقل إلى البعض بعض الارتعاشات الكئيبة المبهمة والآسرة التي تحس بها أمام الروائع الحزينة للصحراء».

وأنا بدوري أقول إنني من خلال هذا العمل المتواضع ما أردت إلا أن أقاسم القارئ المعرب لذة هذه النصوص الجميلة، وأن أنقل له بعضا من اختلاجات هذه الإيزابيل الجزائرية القضية والسلوك.

إن الكلام عن إيزابيل ممتع وأخاذ ولو أطلقت العنان ليراعتي لما توقفت هنا، فليعذرني القارئ الكريم عن هذه الإسهابات التي ربما جاءت في غير مكانها هنا، وليسمح لي بإنهاء هذا الكلام بهذا المقطع الشعري من قصيدة بعنوان: إيزابيل.. أميرة الرمل.

أأميرة هذا الرمل...

ما عاد أريج الوردة يثلج مهجتنا

ما عادت تستهوينا مدن الفل

ما عاد غروب الشمس يهز مشاعرنا

ما عاد شروق الفجر الآسر يدهشنا...

أو هدء الليل

وهج الحس خبا

والقلب عن الحسن نبا

فغدت دنيانا مقبرة

وصحارى الروح حدائق من وحل

أأميرة هذا الرمل

كم غنيت ذي الأرض

ها قلب الأرض إليك الآن يحن

فخذي كل جلال الأرض

ها نبض النبض إليك الآن يئن

فخذي سحر جلال النبض

وشموخ النخل

وشذا الصحراء، وعطر التل

يا امرأة من نار...

يا امرأة من وهج الرمل.

حسن دواس

رمضان جمال، في: ٤ مارس ٢٠٠٥

بيوغرافيا إيزابيل إبرهاردت

ميلادها ونسبها

إن هوية إيزابيل إبرهاردت غير واضحة ويسـودها كثير من الغموض، وقد أسالت حبر كثير من كتاب سيرتها، إذ إنها أعلنت ابنا غير شرعي بعد مرحلة من عمرها.

أمها ناتالـي إبرهاردت، أرسـتقراطية ألمانيـة تتبع المذهب اللوثري (المصلح مارتن لوثـر)، كانت متزوجة بالجنرال بول دي موردر والتي أنجبت منه ثلاثة أولاد حين قاما بتوظيف ألكسندر نيكولايفيتش ثروفيموفسـكي المدعو فيفا كمـربٍ للأولاد، كان ثروفيموفسكي - وهو قس أورثوذوكسي أرميني سابق، ثم تحول إلى ملحد، عدمي - رجلا عالما، مثقفا، وفيلسوفا، ويتقن العديد من اللغـات: التركية، والألمانية، والعربية والروسـية، وكان فيفا جذابا فتعلقت به ناتاليا لتفر معه إلى سويسرا، تاركة زوجها. غير أن أسباب هروبها غير واضحة ويمكن أن تكون أسبابا سياسية، أكثر من فرار عاشقين، إذ ومن دون شك أن ثروفيموفسكي قد مارس دورا في الحركة الثورية الروسية في ذلك الوقت.

يائسـا، كان بـول دي موردر يتبـع ناتالي فـي ترحالها عبر أوروبـا لينتهي بهما الأمر إلى التصالح ويولد لهما ابن يعترف به الجنرال. لكن بعد سـنة يموت بول دي مـوردر تاركا ثروة هائلة لزوجته.

أمضت ناتالي وألكسندر السنوات التالية مع الأولاد مرتحلين عبـر أوروبا، وكان ألكسـندر يقوم بزيارة لروسـيا بـين الفينة

والأخرى للإشراف على إدارة أموال رفيقته.

وفي أحد غياباته المتكررة، وبالضبط في السابع عشر من فبراير سنة ١٨٧٧ وضعت ناتالي بنتا هي :إيزابيل، كان ذلك بجنيف في سويسرا في فيلا فانت (Fendt)، الواقعة بحي الكهوف (Quartier des Grottes).

لكن ثروفيموفسكي رفض الاعتراف بأبوة البنت لعدائيته للعقود والأعراف، أو بتحريض من أطراف ما أو لسبب آخر، وحملت إيزابيل لقب جدتها إبرهاردت. لقد تعرض أمر ميلاد إيزابيل إلى كثير من المضاربات من طرف المهتمين بحياتها، حتى أن بعضهم نسبها للشاعر الفرنسي الكبير آرتر رامبو؛ لما وجد من تشابه كبير بينهما، وتؤكد الكاتبة الفرنسية فرانسواز دوأوبون، أن والد إيزابيل هو الشاعر المعروف رامبو، وليس الجنرال الروسي الآنف الذكر. ودليلها على ذلك إضافة إلى التشابه الكبير بين ملامحهما، أن اسم «ايزابيل» هو في الوقت نفسه اسم شقيقة رامبو الذي كان متعلقا بها إلى درجة كبيرة، كذلك الجملة الواردة في أحد كتبها..» أنا أيضا سأموت مسلمة مثل أبي" حيث يقال إن رامبو بعد رحلة ضياعه في وادي النيل قد اعتنق الإسلام.

ولكن الأغلب أن إيزابيل هي ابنة ثروفيموفسكي ولكن البيوغرافيين خاصة الفرنسيين منهم أطلقوا العنان لخيالهم واستنتاجاتهم وأحكامهم الجاهزة في كثير من الجوانب التي تمس حياة إيزابيل ، لأسباب معلومة أهمها مواقف إيزابيل من القضية الجزائرية ومساندتها المستميتة للشعب الذي احتضنها

وأحبهـا وأحبتــه. وقد آن الأوان لتسـليط الأضـواء على حياة هذه الشـخصية الكاريزماتية وعلـى أعمالها من طرف باحثين جزائريين، وإعادة الاعتبار لقلم جاد كان شاهدا على حقبة مهمة من تاريخ الجزائر.

نشأتها

قرر فافا وناتالي بعد كبر إيزابيل الاسـتقرار بسويسرا رغبة في المحافظة على الأولاد وخوفا من اسـتنكار علاقتهما بروسيا التي لم تكن متفتحة في ذلك العهد.

وأقامـت العائلة بميريـن (Meyrin) بفيلا نـوف (Villa Neuve) وقضت إيزابيل طفولتها برفقة الأولاد الأربعة لناتالي: نيكول، أوغسـتين، ناتالي وفولوديا. وسـط هذه العائلة الرحالة ترعرعت إيزابيل.

في البدء، كان فافا، والدها من تولى تعليمها، لقد كان فوضويا وكذلك أنشـأ إيزابيل، لم يدخلها المدرسة ولكنه درسها الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والكيمياء وقليلا من الطب كما علمها اللغات التـي يعرفها: اليونانيـة، التركية، اللاتينيـة، العربية، الألمانية، الإيطاليـة وطبعا الروسـية، التي لم يزل يتكلم بهـا، أما ناتالي والأولاد وكأرستقراطيين حقيقيين، كانوا يتكلمون الفرنسية.

لـم يقتصر ألكسـندر على تعليـم إيزابيل العلوم الإنسـانية واللغوية فقط ولكنه كان يدربها على كل مناحي الحياة، فقد ابتاع لها حصانا وعلمها كيف تركب الخيل وتتعامل معها، ولعل دروس الفروسية هذه وغيرها هي التي ساعدتها على اختراق الصحراء

ورمالها والتوغل في دروبها الوعرة والتعامل مع طبيعتها القاسية. ثم التحقت فيما بعد بالمدرسة الثانوية.

وقد أدت فيلا نوف دورا مهما في انفتاح إيزابيل على ثقافات متعـــددة مختلفـــة، إذ كانت مقر التقاء الثقافـــات العالمية وكانت تســـمع كل اللغات هنـــاك، إضافة إلى المكتبـــة الكبيرة الموجودة بها والزاخرة بالمعاجـــم والكتب المختلفة اللغات والتي نهلت منها إيزابيل الكثير.

في هذا الوســـط الفكري والمتعدد الثقافات، تفتحت إيزابيل وتفجرت فيها رغبة الاستكشـــاف، وراحـــت تملأ الدفاتر بعديد الملاحظـــات في التاريخ والجغرافيـــا والأدب... لقد كانت تطالع كثيرا.

لكن ذلك الغليان الثقافي وتلك اللقاءات بمنزل إيزابيل أثارت شـــكوك شرطة الأجانب؛ فناتالي وألكســـندر لم يكونا إلا مجرد لاجئين روســـيين في نظر الســـلطات.وهذا ما أدى إلى تشـــتت العائلة شـــيئا فشيئا، إذ في ســـنة١٨٨٣ غادر الابن الأكبر نيكولا منزل العائلة إلى روسيا.

كانت إيزابيل لأسباب نفسية ترتدي لباس إخوتها، ولكن الأمر راقها فأصبحت تحـــب تلك الأثواب الذكرية فراحت تتزين بهذه الألبسة الغربية لتتسكع بها في شوارع جنيف.

في سنة ١٨٨٨ جاء دور الشقيق الآخر لإيزابيل لمغادرة المنزل والالتحاق بجيش الأجانب في الجزائر. لتسمع إيزابيل ربما لأول مرة أخبار الجزائر .

وبمجـــرد رحيل شـــقيقها راحت إيزابيل تتعلـــم اللغة العربية

والقبائلية، كذلك الرسم لتتمكن من إعداد الرسومات التخطيطية الضرورية للرحالة. ومنذ ذلك الوقت لم تعد تفكر إلا في السفر والكتابـــة، ولهذا طلبت من أخيها أن يـــدون بدقة يوميات حياته كجندي. حتى هي اســـتعارت اســـم نيكولا بودنســـكي، وربطتها علاقة مراسلة بينها وبين أحد أصدقاء أخيها البحارة.

رحلتها إلى شمال أفريقيا

وتجســـدت أحلامهـــا في المغامـــرة والســـفر أولا عن طريق الكتابة بمســـاعدة أخيها الذي كانت تتبادل معه الرسائل ويصف لها يومياته بالجزائر، وكان أول ظهور لها على الساحة الإعلامية سنة ١٨٩٥ حيث نشرت أولى قصصها «كانفرناليا رؤية غسقية» فـــي المجلـــة الباريســـية الجديـــدة - La Nouvelle Revue parisienne- وكـــذا «رؤية المغرب» التـــي تصف فيها الجزائر قبل رؤيتها لها.

في شهر مايو من ســـنة ١٨٩٧ غادرت إيزابيل برفقة والدتها جنيف باتجاه الجزائر، وعمرها عشـــرون سنة، واستقرا بمدينة عنابة بالحي العربي الذي اعتنقا فيه الإســـلام هناك. لكن الأم أصيبت بمرض اضطر الزوج ثروفيموفســـكي إلى الالتحاق بهما حيث وجد إيزابيل في وضعية نفسية متدهورة جدا وقد أصيبت بحالة مـــن الجنون والصرع نتيجة لعـــدم مقدرتها على الوقوف بجوار أمها في محنتها الصحية. وفي الثامن والعشرين من شهر نوفمبر من السنة نفسها توفيت ناتالي دي موردر عن عمر يناهز ٥٩ ســـنة. وقد أثـــر رحيل أمها كثيرا في معنوياتها، فســـافرت

إلى تونس لقضاء فترة نقاهة على حساب السلطات الفرنسية، ولم تغير إيزابيل هناك من طبعها، ونمط حياتها، مرتدية لباس الرجال، كانت تنام بالمقاهي وتخالط بسطاء الناس سابرة أغوارهم، مستكشفة طرائق عيشهم وتفكيرهم.

في العام ١٨٩٨ نشر الجهاز الإعلامي L'Athénée بعض قصصها ومقالاتها، ولكنه توقف عن النشر لها بعد نزاع وقع بينها وبين المدير بسبب قضية دريفيس وأفكار أخرى معادية للسامية، وبقيت إيزابيل بلا مصدر رزق. في هذه الفترة بدأت في كتابة «راحيل»، وهي رواية تدور أحداثها حول قصة حب بين طالب مسلم وفتاة يهودية، وهي الرواية التي رافقتها أينما ذهبت والتي لم تستطع إكمالها.

وفي ١٤ مارس سنة ١٨٩٩ اضطرت إيزابيل للعودة إلى جنيف بعد مشاركتها في تمرد للجزائريين ضد المستعمر الفرنسي، والتي وصلتها قبل مدة قصيرة من انتحار شقيقها فولوديا أو فلاديمير ومكثت هناك بجانب أبيها فافا إلى أن توفي بمرض السرطان.

كان لفقدان والديها وأخيها أثر كبير في إيزابيل من الناحيتين النفسية والمادية، فقد كان لزاما عليها أن تعتمد على نفسها، فعادت إلى تونس، وهي تجهل كيف ستعيش هناك بالمال القليل الذي كان معها والذي بدأ يتناقص، ثم تركت تونس لتلتحق بأخيها أوغستين بمرسيليا، كي تجده هو الآخر معدما، يتخبط في صعوبات مالية جمة، فزارت العديد من المدن الفرنسية باحثة عن مصدر مالي، وفي العاصمة الباريسية حاولت أن تحصل

علــى وظيفة كصحفية، ولكن دون جدوى لولا تعرفها هناك على الماركيــزة مور التــي مات زوجها بالجنوب التونســي في ظروف غامضــة، أثناء إحدى الحملات العســكرية .كانت الماركيزة مور تريد معرفة حيثيات وظروف وفاة زوجها، ولما أعجبت بشخصيتها وجرأتها وذكائها كلفتها بمهمة التحري عن تلك الظروف ومعرفة الحقيقة الكاملــة. وهكذا عادت إيزابيل إلى تونس برفقة أخيها أوغســتين مرة أخرى في شــهر يونيو ١٨٩٩. كانت تلك الرحلة مثمرة بالنسبة لها على الصعيد النفسي خاصة، واستطاعت أن تعرف أن زوج الماركيزة مات منتحرا.

ومن تونس تتابع إيزابيل رحلتها وحدها إلى الجزائر العاصمة، مــرة أخرى، وذلك في العام ١٩٠٠، ومنها تســافر إلى تقرت ثم الــوادي، الذي تعرفت فيه على ســليمان أهني أحد الفرســان المسلمين الصبائحيين.

وفي ٢٩ من شــهر يناير العــام ١٩٠١ نصب أبو أحمد رئيس الطريقة التيجانية التي تعادي الطريقة القادرية، كميناً لمجموعة مــن الخيالة، كانت إيزابيل ضمنهــا فجرحت جرحا كبيرا لكنها نجت من الموت بعد عملية جراحية ناجحة في مستشفى «العويد» حكم بعدها على الجاني بالأشــغال الشــاقة وعلى إيزابيل بعدم دخولهــا الجزائر. وأثنــاء محاكمة الجاني بمحكمة قســنطينة وقفت إيزابيل بجانب الرجل الذي اعتدى عليها بالسكين، طالبة الصفح عنه مما أثار سخط هيئة المحكمة الفرنسية.

وبسبب تلك الأحداث ونظرا إلى نمط حياة إيزابيل الغريب، ثارت بعض الشكوك حولها ؛ فتاة في زي الرجال تسمي نفسها

سي محمود السعدي، تحمل جواز سفر روسيا، تعتنق الإسلام ، تقطـــع الصحراء بمفردها، تســـجل كل كبيرة وصغيرة أينما تمر، وتنشر كل ذلك في العديد من الصحف والمجلات.

وفـــي مايو ١٩٠١ أجبـــرت إيزابيل على مغـــادرة الجزائر. وتوجهت إلى مرسيليا، باسم مستعار، متنكرة في بدلة العمال الزرقاء، حتى تتمكن من الســـفر في الدرجة الرابعة الممنوعة على النساء.

في مرســـيليا فكرت إيزابيل في العودة ثانية إلى الجزائر، ولم يكن أمامها من ســـبيل إلى ذلك إلا الـــزواج، ولأنها كانت تـــدرك أن ســـبيل العودة إلى الجزائر هو الزواج من فرنســـي واســـتطاعت أن تتحصل من السلطات الفرنسية على رخصة الزواج المدني وتم ذلك بعد التحاق سليمان بها بمرسيليا في ١٧ أكتوبر١٩٠١ وأصبح اســـمها ليلى محمودة. وبذلك استطاعت العودة إلى فردوســـها المفقود في الصحراء الجزائرية وســـط الرمال الذهبية حيث يســـطع النور مـــن كل الجهات. وعادت إيزابيل برفقة زوجها سليمان إلى الجزائر في١٤ يناير ١٩٠٢.

وعـــن زواجها كتبت الكاتبة الفرنســـية ســـيمون دوبفوار.. «عندمـــا تزوجت إيزابيل التـــي انطلقت إلـــى الصحراء بزي الرجال علـــى ظهر جوادها، لم تشـــعر بعـــدم الاحترام تجاه ذاتها. مـــن الصعب القول لماذا اختارت ايزابيل هذا الزي. قد يكون ذلك قد راق لها أو اعتمدته للدفاع عن نفسها. إن الزي الرجالي قياســـا إلى الزي النسائي شيء مصطنع، لكنه قياسا إلى الزي النســـائي أكثر راحة. جـــورج صاند مثلا، كانت مثل

إيزابيل ترتدي ملابس الرجال»...

بعـد رجوعها إلى الجزائـر، انطلقت تختـرق الرمال في اهتمام خـاص بالمياه مـن ينابيع ووديان وبالنـاس وعاداتهم ونمط حياتهم. وفي زيارة لهـا إلى الجزائر العاصمة، عرض عليها الناشـر فيكتـور باريكـون (Victor Barrucand) العمـل كمبعوث خاص لجريـدة الأخبار، كمـا تعاونت أيضا فـي المجال الإعلامي مع لوس دنابـين (Luce Denaben) مديرة مدرسة أوفروار للفتيات المسلمات بالجزائر. ولأول مرة يمكن القول إن إبرهاردت عاشت حقيقة من مصدر الصحافة وأصبح لها دخل منتظم، خاصة أن سليمان أيضا تحصل على منصب عمل كمترجم، وتقربـت إيزابيل في تلك الفترة أيضا من جماعة من الكتاب أصدروا مجلة أدبية أسـموها «فرنسا الكبرى» La Grande France.

شـغوفة بالذهاب إلى عمق الأشـياء، عاشـقة للفضاءات الرحبة، ظمأى لاستكشاف المجهول دوما، كانت إيزابيل تتوغل أكثر فأكثر في الصحراء الشاسعة، وكانت رحلاتها تلك تنشر بانتظام في جريدة الأخبار حيث تتولى تحرير عمود ثابت بها. في كتاباتها الطافحة بالألوان القزحية والأجواء السـحرية لم تتردد إيزابيل في الدفاع عن القضايا الإنسـانية وفضح بعض ممارسات المسـتعمر الفرنسي الذي لم ترق له بعض مواقفها والـذي ربما قـام بإتلاف جزء من كتاباتهـا خاصة اليوميات الخامسـة بعد العثور عليها تحت الأنقاض من طرف الجنرال ليوثي.

في خريف ١٩٠٣ (شـهر سـبتمبر) أرسـلت إلى الجنوب الوهراني كمراسلة حرب - وتجدر الإشارة هنا إلى أنها كانت أول امرأة مراسـلة حرب في نهاية القرن التاسع عشر - من طـرف جريدة الأخبـار، بعد موافقة الجنـرال ليوثي لتغطية أحداث المواجهـات بين المقاومة الجزائريـة وجنود الاحتلال الفرنسـي، وكذا الصراع الحـدودي بين الجزائـر والمغرب. وأقامت بعين الصفراء، لتلتقي بالماريشـال ليوثي في ديسمبر ١٩٠٣ ببني ونيف.

وفي مايـو ١٩٠٤ عادت إيزابيل إلى عـين الصفراء حيث استأجرت منزلا أقامت فيه هناك. في تلك الفترة كتبت كثيرا عدة مقالات عن المنطقـة: عين الصفراء، فقيق، الزوبية، بني ونيف، كما التقت هناك مسؤول زاوية الشيخ بوعمامة الواقعة بالحمام الفوقاني.

وفي صيف ١٩٠٤ سـافرت إلى المغرب، متجهة إلى مدينة قنادسـة من أجل الالتقاء بالمتصوفين، قاصدة زاوية سـيدي إبراهيم ولد محمد. هذه الأخيرة التي تعتبر مزارا للعديد من الشـخصيات الدينية وتنظم ملتقى سنويا يحضره متصوفون من كل أنحاء الشـمال الأفريقي. إيزابيل كانت في السـنتين الأخيرتين مـن حياتها قد اعتنقت الطريقـة القادرية وأطلق عليها مريدو الطريقة اسم «باز الإسلام» ونظرا للاضطرابات التي كانت تسـود المنطقة، قبض على إيزابيل من طرف رجال الزاوية وزج بها في السجن لمدة أسبوع بتهمة التجسس لحساب الفرنسيين، لكن أطلق سراحها فيما بعد مباشرة.

وفاتها

كتبت إيزابيل إبرهاردت عن الموت:

«ربما يكمن كل السحر المؤلم في اليقين المطلق للموت. لو كانت الأشياء أزلية لبدت لنا غير جديرة بالتعلق بها».

في ٢ أكتوبر ١٩٠٤، تدخل إيزابيل المستشفى العسكري بعين الصفراء للمعالجة من مرض الملاريا الذي كانت تعاني منه منذ مدة، وبقيت بالمستشفى لمدة أسبوعين. بعد خروجها كتبت لسليمان رسالة تطلب منه الالتحاق بها لمرافقتها، حيث استأجرت منزلا من الطين في الجهة المنخفضة من القرية واستقرت به.

في ٢١ أكتوبر ١٩٠٤، بعد تغير مفاجئ في الأحوال الجوية ، غمر المدينة الوادي، الذي كان جافا بالكلية، ودمر جزءا من عين الصفراء. استطاع سليمان أن ينجو من هذه الكارثة الطبيعية، غير أن إيزابيل وقد أضعفها المرض لم تستطع الهروب ووجدت ميتة تحت أنقاض منزلها، مرتدية لباس الفرسان العرب. ودفنت على الطريقة بمقبرة سيدي بوجمعة الإسلامية.

بعد الحادثة أرغم الجنرال ليوثي جنوده على البحث عن مخطوطاتها، وتم العثور على مخطوطها المعنون بـ «الجنوب الوهراني» الذي نشره باريكون فيما بعد، سنة ١٩٠٥ تحت عنوان «تحت ظلال الإسلام الدافئة» (Dans l'ombre chaude de l'Islam).

وحتى الآن وبعد مرور أكثر من قرن على وفاتها، تبقى إيزابيل شخصية مثار إعجاب ومازال الكتاب ينشرون كتبا حول أعمالها وشخصيتها الأسطورية المتميزة.

أعمالها

تركـــت إيزابيـــل بعد وفاتها عـــدة أعمـــال مخطوطة وأخرى منشـــورة في الجرائد والمجلات، وتعتبر أعمالها وثائق شـــاهدة على العصر وعلى فترة مهمة من تاريخ الجزائر وقد نشـــرت كما يلي:

كتابات على الرمل Ecrits sur le sable

من جزأين، عرض وتعليق ماري أوديل دولا Marie-Odile Delacour كور وجون ريني ايلو Jean-René Huleu وكتبت المقدمة إدموند شارل رو d'Edmonde Charles-Roux

باريس، غراسي ١٩٨٨-١٩٩٠

الجزء الأول:

ســـرديات، ملاحظـــات ويوميـــات Récits، notes et journaliers

يحتوي على ملاحظات في الرحلات، كتاباتها الأوتوبيوغرافية الحميمة الشخصية

تسكعات Vagabondages : مجموعة من ذكريات رحلاتها في الصحراء التونســـية. نشر في المجلات في حياتها ثم أصدره بعد وفاتها صديقها فيكتور باريكون

عودة إلى الجنوب Retour au sud.

يخص الجزائر وبالضبط الجنـــوب الوهراني وهو عبارة عن ملاحظات في الطريق

Ecrits sur le sable (t. 2) (Récits) - GRASSET ET FASQUELLE, 1990

Lettres et Journaliers (Lettres) - BABEL (ACTES SUD), 1992

Dans l'ombre chaude de l'Islam (Récits) - ACTES SUD, 1996

Yasmina et autres nouvelles algériennes (Nouvelles) - LIANA LEVI, 1998

NOTES DE ROUTE. Maroc - Algérie - Tunisie (Récits) - BABEL (ACTES SUD), 1998

Ecrits intimes. Lettres aux trois hommes les plus aimés (Lettres) - Payot, 1998

Un amour d'Algérie (Nouvelles) - Éditions Joelle Losfeld, Paris, 1998

Ecrits intimes (Correspondance) - Éditions Joelle Losfeld, Paris, 1998

L'Ecriture de sable (Récits) - Editions Barzakh, Alger, 2002

Au pays des sables (Nouvelles) - Éditions Joelle Losfeld, Paris 2002

Sud Oranais (Journal) - Éditions Joelle Losfeld, Paris 2003

المراجع

هذه المعلومات مستقاة من العديد من المقالات والمواقع على الشبكة العنكبوتية حول الكاتبة والرحالة إيزابيل إبرهاردت أهمها:

http://switzerland.isyours.com/s/index.html
http://ns35.hosteur.com/~eloued/index.htm
http://www.memo.fr/index.htm
http://dzlit.free.fr/listelivre.php?letr=_&tit=eberhardt&Ex%E9ctit=Rechercher
http://www.geneve.ch/fao/2002/20020902.asp
http://www.digbib.uio.no/roman/Art/Rf-16-02-2/fra/Barstad.pdf
http://mapage.noos.fr/sacados/lectures/lectures52.htm
http://www.rosadoc.be/site/mainfr/spotfrans.htm

كتبت الجزء الأول منه حين كانت مراسلة حرب على الحدود المغربية الجزائرية سنة ١٩٠٣.

أما الجزء الثاني فكتب خلال إقامة أخرى بالجنوب الوهراني وقد فاحت بعطر البعد الصوفي مع وصف للقنادسة قلعة الصحراء الدينية. بعد موتها نشر فيكتور باروكون بعد تحوير في «ملاحظات في الطريق» و«في ظل الإسلام الدافئ»

اليوميات Les Journaliers

هي بمنزلة دفتر شخصي وأدبي كتبته خلال الأربع سنوات الأخيرة من حياتها ويبرز ذوقها الأدبي إعجابها ببيير لوتي والإخوة جونكور، وعشقها للمطلق، وميلها للصوفي، وحالات الإحساس بالوحدة، وحزنها لموت الأقرباء، وحبها لزوجها سليمان، ومحاولة اغتيالها الخ....

الجزء الثاني

قصص وروايات

وقد خصص للكتابات القصصية ويضم:

المرآة- رؤيا المغرب - انفرناليا - الجحيمية -النقيب - المغربي- الزاوية- أم زهار - تحت النير - الساحر- وصول المحتل - تسعديت- ياسمينة - ليالي رمضان - الفلاح - عين جابود - الدرويشة - المداح - نحيب اللوز- عصر العدم - الفوقارة- المتشرد - جنة الماء- مريمة - مطورني- الليل - في الفجر- السترة الزرقاء - المشعوذ - دكتوراه - العلماء - رواية التركي - الفوضوي - أسداف أفريقية - المخدوعون- مآثر

الأهالي- أشـواق - المجوسـي - المزخرف المحتـرم - اليد - في الكثيب- الصديـق - صورة أولاد نايل - تاعليت - مجرم- الخوني- على الهامش - شـحاذ - زهور وياسمينة- في درب اللـه - تخييم - حداد - أفراح سـوداء - سـيراس - يهودا- المتسكع- ايوستراث.

كتبت إيزابيل حوالى سـتين قصة، نشـر معظمها في حياتها بالصحافة الجزائرية على شكل حلقات

الأخبار - البرقية الجزائرية la Dépêche Algérienne

كتابات حميمة: رسائل إلى أحب ثلاثة رجال

Ecrits intimes: lettres aux trois hommes les plus aimés

ونشـر بتعليق وتقديم ماري أوديل دولا كور Marie-Odile Delacour وجون ريني ايلو Jean-René Huleu

بالاشتراك مع فائزة عبد الوهاب. بباريس، بايو، ١٩٩١

وهو عبارة عن مراسـلات مع شـقيقها أوغستين، وصديقها وأمين سرها علي عبد الوهاب وزوجها سليمان. هذه المراسلات امتدت على مدار سبع سنوات وتبرز شخصيتها المعقدة والمتميزة.

بيبليوغرافيا

Trimardeur (Roman) - Éditions Fasquelle, Paris, 1922

Ecrits sur le sable (t. 1) (Récits) - GRASSET ET FASQUELLE, 1988

الغريمة

في أحد الصباحات، توقفت الأمطار المشجية فجأة، وأطلت الشمس في سماء صافية صراح، ذات زرقة بالغة، وقد اغتسلت من أبخرة الشتاء الباهتة.

في الحديقة المنزوية كانت شجرة الأرجوان الكبيرة تمد أذرعها الموسوقة بالأزهار الوردية الصينية.

إلى اليمين يمتد الانعطاف البادخ لروابي مصطفى وينأى في شفافية لامتناهية.

كانت هناك شذرات ذهبية على الواجهات البيضاء للفيلات.

هناك بعيدا تتبسط أجنحة الزوارق النابوليثانية الشاحبة على موج الخليج الهادئ.

تمر نسمات مفعمة بالرقة في الهواء الدافئ. تقشعر الأشياء فجأة فتستفيق في قلب المتشرد أوهام الانتظار، والاستقرار والسعادة.

ينعزل مع تلك التي أحبها قلبه في المنزل الصغير حيث تمر الساعات بلا إحساس وفي وهن سائغ، وراء المشربية ذات الخشب المنحوت، وراء الستائر ذاوية الألوان.

في الجهة المقابلة كان الديكور الكبير للجزائر وهو يدعوهما إلى احتضار لذيذ.

لماذا الرحيل، لماذا البحث عن السعادة في مكان آخر، والمتشرد يعثر عليها هنا؟ لا حد لها في ثمر البرقوق المتغير للحبيبة حيث يغوص بنظراته طويلا، طويلا إلى أن تسحق كآبة الشهوة القصوى روحيهما؟

لماذا البحث عن فضاء حين تنفتح خلوتهما الضيقة على الآفاق الفسيحة، حين يحسان أن الكون فيهما يختزل؟

كان كل شيء عدا حبه يبتعد... يرتد إلى موجات تنأى.

يتخلى عن حلمه الداعي للفخر بالوحدة، يتنكر لديار الصدف والمخاطرة والطريق الصديقة، تلك الخليلة المستبدة، المنتشية بالشمس، تلك التي طالما أخذها وأحبها.

استسلم المتشرد بقلب مضطرم ساعات وأياما لهدهدة إيقاعات النشوة التي كانت تخيل إليه أزلية.

كانت الحياة والأشياء تبدو في مخيلته جميلة، فكر أيضا أن وضعه الآن قد صار أحسن، وقد غدا أكثر رقة في قوة سلامة جسمه المنكسر، وطاقة إرادته الذاوية.

...في الماضي، أيام المنفى وفي خضم السأم الساحق للمعيشة الحضرية في المدينة، كان قلب المتشرد يعتصر وجدا لذكريات فتنة المشهد الساحر للشمس على السهل الطليق.

والآن، وهو يفترش سريرا دافئا في شعاع من أشعة الشمس الذي يتسلل من النافذة المشرعة، يمكنه أن يستحضر وبصوت خافت جدا، في أذن الحبيبة رؤى وطن الأحلام، ممزوجة فقط بالكآبة المبهمة الرقيقة كأنها عطر الأشياء الميتة.

لم يعد المتشرد يأسف على أي شيء. إنه لا يرغب إلا في تلك اللحظات السرمدية للذي كان.

أسدل الليل الدافئ ستائره على الحدائق. صمت يخيم، وتنهدة عميقة تصّاعد، تنهدة البحر الذي ينام هناك في المنخفض السحيق تحت النجوم. تنهدة الأرض المفعمة بحرارة الحب.

نيـــران تتوهـــج كاللآلئ على قمم الروابـــي الغضة. أخرى تناثـــرت على الســـاحل كأنها حبات مســـبحة ذهبية، وأخرى تشتعل كأنها عيون حائرة في مخمل ظل الأشجار الباسقة .

خرج المتشـــرد وحبيبته إلى الطريق المقفرة إلا منهما، وقد اشتبكت أيديهما وراحا يبتسمان في الليل.

لم يتكلما، ففي الصمت يتفاهمان أكثر.

وصعدا المنحدر الســـاحلي ببـــطء، بينما كان القمر ينبعث من بين أشـــجار الأوكاليبتـــوس على أولـــى تضاريس متيجة المنخفضة.

وجلسا على صخرة.

ينبعث بريق أزرق على الريف الليلي، وتهتز أرياش البلشون الفضية على الأغصان الرطبة.

تفرس المتشـــرد في الطريـــق طويلا، الطريق الفســـيحة البيضاء المسافرة بعيدا، في المدى.

طريق الجنوب

واهتز عالم من الذكريات في روح المتشرد التي استيقظت فجأة.

أغمـــض عينيه ليطـــرد تلك الرؤى، وتشـــنجت يده في يد الحبيبة وهو يشدها

لكنه، رغما عنه، يفتح عينيه.

عشقه القديم للخليلة المســـتبدة المنتشية بالشمس يعاوده من جديد، كان لها بكل وجدانه.

وهو ينهض، ألقى نظرة طويلة إلى الطريق للمرة الأخيرة:

لقد كان موعودا بها.

... دخـــلا ظل حديقتهما المفعم بالحيـــاة وخلدا للنوم في صمت تحت شجرة الكافور الباسقة.

فوق رأسيهما كانت شجرة الأرجوان تمد أذرعها الموسوقة الملأى بأزهار وردية تبدو كأنها بنفسجية، في الليل الأزرق.

ينظر المتشرد إلى حبيبته الجالسة قربه.

لم تعد سوى رؤية ضبابية مائعة وستتقشع في ضياء القمر.

كانت صـــورة الحبيبة باهتة، بعيدا هنـــاك بالكاد تتجلي.

حينئذ أدرك المتشـــرد الـــذي لم يزل قلبه ينبـــض بحبها أنه سيرحل في الفجر، وانقبض قلبه.

أمســـك زهرة كبيرة من الكافـــور العاطر وقبلها كي يخفي شهقة.

وراء الخط الأســـود للأفـــق، كانت الشـــمس الحمراء قد تلوثت في بحر من الدم.

وبســـرعة انطفأ النهار، وغرقت الصحـــراء الصخرية في شفافية سوداء.

واشتعلت بعض النيران في ركن من السهل .

بـــدو رحالة مســـلحون بالبنادق يهزون ســـتائرهم الطويلة البيضاء حول اللهب المضيء.

يطلق حصان مشكول صهيله.

رجل يجلس القرفصاء، رأســـه إلى الوراء، مغمض العينين كمـــا في حلم يدندن أغنية شـــعبية قديمة كئيبة حيث تتناوب كلمة حب مع كلمة موت.

ثم صمت كل شيء في المدى الشاسع الأخرس.

نائمـا كان المتشـرد، قرب نار نصف مطفأة وقد تسـربل ببرنوسه.

متكئـا برأسـه على ذراعـه، منهك القوى، استسـلم إلى السـكينة اللامتناهية في أن ينام وحيـدا مجهولا بين أناس بسـطاء وأجلاف، مجهولا حتى مـن الأرض، الأرض الطيبة المهدهدة، في مكان مجهول من الصحراء وحيث لا يعود أبدا.

نحيب اللوز

إلى ماكسيم نواري، رسام الآفاق الملتهبة وشجر اللوز المنتحب.

تنام بوسعادة، الملكة الضارية متسربلة بحدائقها الداكنة ومحروسة بروابيها البنفسجية؛ لذيذة مثيرة على الضفة المنحدرة للوادي حيث يدمدم الماء على الأحجار البيضاء والوردية. وقد انحنت كما على لامبالاة حلم على الجدران الطينية الصغيرة، أشجار اللوز تذرف دموعها البيضاء تحت مداعبة الريح... وأريجها الزكي يحلق في دفء الجو الرطب ناثرا كآبة مبهمة فاتنة...

إنه الربيع وتحت مظاهره الذبول، ورقة الأشياء الشجية.

تنام الحياة كامنة عنيفة طافحة بالحب والشوق، يتدفق النسغ الغامر من ينابيع الأرض الخفية، كي تولد في نشوة مولد جديد.

يخيم صمت مدائن الجنوب على بوسعادة، في المدينة العربية يندر المارة، غير أنه في الوادي تتجول أحيانا كوكبة من النساء والفتيات في أثواب ساطعة.

ملاحف بنفسجية، زمردية، وردية ناصعة، صفراء ليمونية، حمراء رمانية، زرقاء سمائية، برتقالية، حمراء أو بيضاء، مزركشة بالأزهار والأنجم المتعددة الألوان... رؤوس مغطاة بالبناء الثقيل للتسريحة الصحراوية والمتكونة من ضفائر من أياد فضية أو ذهبية، وسليسلات، ومرايا صغيرة، وتمائم، أو متوجة بأكاليل شعرية مزينة بأرياش سوداء. كل هذا يمر، متألقا في الشمس، تتشكل المجموعات وتتبدل في شكل قوس قزح متغير باستمرار، كأنها فِرَق فراشات ساحرة.

هــي مجموعات من الرجال قد تدثرت وتقلنســت بالأبيض، ذات وجوه علاها وقار واســمرار، تخرج في صمت من الشوارع المغراءة.

منذ سنوات لم يبرحا مكانيهما أمام كوخ الطين المجفف تحت الشــمس الصديقة، مــن الصباح حتى المســاء. كانت العجوزان ترتديــان ملحفتين داكنتي الحمرة يشــكل صوفهمــا الكث ثنايا ثقيلة حول جسديهما الموميائيين.

والتسريحة وفق عادات البلد، بضفائر صوف أحمر وضفائر شــعر شــهباء مخضبة بحناء برتقالية نير لونهــا، وفي أذنيهما المتعبتين حلقات ثقيلة، بسليســلات فضية مشــبوكة في المناديل الحريريــة للتســريحة. وعلى الصــدر الهابط قلائــد من قطع الذهــب والعجائن المعطرة المجففة، وصفائــح ثقيلة من الفضة المرصعة؛ ومع كل حركة مــن حركاتهما النادرة والبطيئة ترن كل هذه الحلي والأساور والخلاخيل.

كمعبودتين قديمتين منســيتين بلا حراك، تنظران من خلال دخان سجائرهما الأزرق إلى الرجال وهم يمرون من دون التفات إليهمــا، الفرســان، مواكب الزفــاف، قوافل الجمــال والبغال، والشــيوخ العجز، عشاق الأمس البعيد... كل حركية هذه الحياة لم تعد تعنيهما.

عيونهمــا الذابلــة، زاد فــي اتســاعها إفراط فــي الكحل، خدودهمــا متوردة برغم التجاعيد، شــفاههما محمرة، كل هذه الأبهة تضفي ما يشــبه الظل الكئيب على وجهيهما الشــائخين الأدردين النحيلين.

... حين كانتا في عز شـبابهما، سـعدية ذات الوجه الدقيق المسـفع والأنف المعقوف، وحبيبة البيضـاء النحيفة، كانتا فتنة ليالي بوسعادة وأيامها وسحر البدو.

والآن، ثريتان، وقد تزينتا بثمار شراهة الأيام الغابرة، هاهما تحدقان في أمن وسـلام في ديكور المدينة الكبيرة الزاهر حيث يحتضن التل الصحراء، وحيث تلتقي الأجناس الأفريقية لتشكل فسيفسـاء ممتزجة. وتبتسمان... ربما لهذه الحياة التي تستمر رتيبة ثابتة ودونهما، وربما لذكرياتهما... من يدري؟

وحـين ينبعث صوت المـؤذن الوئيد الأنينـي مناديا المؤمنين تنهـض الصديقتان لتؤديـا الصلاة على سـجادة طاهرة، وقد أحدثتا صليلا كبيرا بحليهما. ثم تعودان إلى مكانهما وأحلامهما، وكأنهما تنتظران أحدا لا يجيء...

نادرا ما تتبادلان بعض الكلمات.

انظري يا سـعدية هناك. سي شعلال، القاضي... أوتذكرين زمـان.. كان خليلا لي، كم كان فارسـا أنيقـا! كيف كان يمتطي بمهارة فرسـه السـوداء! كيف كان كريما، علـى الرغم من أنه لما يزل موظفا بسـيطا. والآن إنه شـيخ هرم... يحتاج خادمين لمساعدته على ركوب بغلته الحكيمة مثله، والنساء لا يتجرأن على النظر في وجهه... هو ذاك الذي كنت أشبع منه العينين قبلا!

نعم... وسـي علي، الملازم الأول، الذي قدم مع سـي شعلال فارسـا بسـيطا في الجيش الفرنسـي والذي كـم أحببته؟ هل تذكرينه؟ هو أيضا كان فارسـا مقداما وشابا ظريفا... كم بكيت حـين غادر إلى المدية! هو، كان يضحك، كان سـعيدا، تم تعيينه

عريفا للتو، وها هو ينســـاني... هكذا هـــم الرجال... لقد توفي العام الماضي... رحمه الله!

يحـــدث أحيانا أن تترنما ببعض أغاني الحب التي ترن غريبة في فميهما اللذين غدا الصــوت ينبعث منهما مرتجفا، مخنوقا تقريبا.

هكذا تعيشـــان، غير مكترثتين بأي شيء، وسط أشباح الأيام الخوالي، منتظرتين ساعة الرحيل.

... تصعد الشمس بطيئة وراء الجبال المغطاة بضباب خفيف. يمر وميض أرجواني في وجه الأشــياء، كما ستار حياء. والأشعة الطالعــة تزرع أرياشـــا من نار علـــى قمم النخيـــل وتبدو قباب النساك الفضية ذهبية. وللحظة تتوهج المدينة القديمة الضارية وكأن لهبـــا فـــي الأعماق أشــعلها، بينما تظل الحدائق، ســـرير الوادي، والممرات الضيقة في الظل غامضة كأنها مترعة بدخان أزرق يذيب الأشـــكال ويصقل الزوايا، فاتحـــا أقاصا من خفايا بين الجدران الصغيرة المنخفضة وجذوع النخل المرصعة... على ضفـــة النهر، يضفي بريـــق النهار المورد لونـــا ورديا ناصعا على عبرات اللوز الحالم المتناثرة، المجمدة في شكل ثلج بريء.

أمـــام منـــزل الصديقتين كانت الريح البـــاردة قد أنهت بعثرة رماد الموقد المطفأ، لتأخذه في شـــكل إعصـــار صغير مزرورق. سعدية وحبيبة ليستا في مكانهما المعهود.

فـــي الداخل يتصاعد أنين أجش حينا، وثاقب حينا آخر حول الحصيـــر حيث ترقد حبيبة، كلفافة قماش حمراء لا شـــكل لها، علـــى الجمود الهامد الذي منه تتـــلألأ الحلي في مظهر غريب،

تنوح سـعدية وعاشـقات أخريات من الزمان الذي مضى وهن يمزقن وجوههن بضربات قاسـية من أظفارهن. وصليل الحلي يرافق في إيقاع منتظم عويل الباكيات.

في الفجر، ولأنها طاعنة في السـن أكثر من اللزوم ومنهوكة أكثـر من اللزوم، ماتت حبيبة من دون احتضار، وفي هدوء جليل لأن نابض الحياة قد انكسر في أعماقها شيئا فشيئا.

... يغسـل الجسد في ماء غزير، ويلف في كفن أبيض، يرش بالطيـب وينوم، الوجه مولى للشـرق. في منتصـف النهار يأتي رجـال ويأخذون حبيبـة إلى إحدى المقابر غير المسـيجة حيث يدحـرج رمل الصحـراء طوعا موجه السـرمدي على الأحجار الرمادية الصغيرة المتعددة.

انتهى كل شيء... وسعدية وحيدة منذ الآن قد أخذت مكانها. تتم زفرات الرمق القليل الذي تبقى من حياتها مع الدخان الأزرق لسـيجارتها الأبدية، بينما كانت على ضفاف النهر المشرق، وفي ظل الحدائق شجرات اللوز تتم ذرف دموعها البيضاء في بسمة ربيعية حزينة...

ياسمينة

كانت قد ترعرعت في وسط جنائزي، حيث في ظل الإقفار المطوق تطفو الروح الغريبة للعهود الخوالي.

هنا انقضت طفولتها، على الأطلال الرمادية، بين الأنقاض وغبار ماض تجهل عنه كل شيء.

ومن العظمة نفسها لهذه البقاع، تلقت ما يشبه الفائض من القدرية والحلم، غريبة، مكتئبة بين كل فتيات جنسها: هكذا كانت ياسمينة البدوية.

تقبع أكواخ قريتها بجنب آثار تيمقاد الرومانية، وسط سهل كبير، تناثرت بين جنباته صخور مجهولة بلا اسم ولا عمر، حطام تناثر وسط حقول البلان الشائك ذي السيماء الشرسة، النبات العشبي الوحيد الذي استطاع أن يقاوم الحرارة اللفوح لفصول الصيف المستعرة. هناك من نبات البلان الشائك كل الأحجام والألوان: الضخم ذو الأزهار الكبيرة الزرقاء، الحريرية وبين الأشواك الحادة الطويلة، أشواك أصغر قليلا، في شكل نجيمات ذهبية... كلها زاحفة، وأخيرا الأشواك ذات الأزهار الوردية الصغيرة الشاحبة. هنا وهناك، دغل ناحل من شجر العناب أو مصطلك تصهب بسبب الشمس.

قوس نصر لم يزل واقفا، ينفتح في شكل منحنى جسور على الأفق المتأجج. أعمدة عملاقة، بعضها مكلل بتيجانه، والبعض الآخر محطم، فيلق من الأعمدة متجهة صوب السماء، وكأنما هي في ثورة غضوب عديمة الجدوى ضد الموت المحتوم...

مدرج بمقاعـــد نظفت وأزيل ركامها حديثا، ســـاحة صامتة، دروب مهجـــورة، هيكل كلي لمدينة كبيرة منتهية، كل المجد المظفر للقياصرة المهزومين من طرف الزمن ومن طرف الحنايا الغيورة لأرض أفريقيـــا هـــذه التي تفتـــرس في تأن ولكن فـــي ثبات كل الحضارات الأجنبية والمعادية لروحها...

منـــذ الفجر، عندمـــا، هناك بعيدا، يرســـل جبـــل الأوراس ومضاته الشـــفيفة، تخرج ياســـمينة من كوخها المتواضع متجهة صوب الســـهل تدفع قطيعها الصغير من الماعز الأســـود والغنم الضارب إلى الرمادي لونه.

من الاعتيادي أن تأخذه إلى وهد متعرج لواد بعيد عن الدوار.

هنـــاك يتجمع رعاة صغـــار القبيلة. غير أن ياســـمينة كانت تفضل العزلة، فلا تشارك الأطفال الآخرين ألعابهم.

كانت تقضي كل أيامها، في الصمت المتوعد للســـهل بلا هم، بلا تفكير، متتبعة أحلاما غامضـــة، غير محددة، يتعذر التعبير عنها بكل اللغات الإنسانية.

أحيانا، كي ترفه عن نفســـها تلجأ إلى قطف بعض الزهيرات الغريبة التي أبقت عليها الشمس في عمق الوادي الناشف، وهي تدندن أناشيد عربية.

والد ياسمينة، الحاج سالم، أصبح عجوزا مقعدا، أمها حبيبة وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها لم تعد إلا مجرد مومياء هرمة، بسبب اعتكافها على الأعمال الشاقة للكوخ وحقل الشعير الصغير.

لياســـمينة أخوان يكبرانها ســـنا، متطوعان كلاهما في فرقة

الصبائحيين، وقد أُرسلا كلاهما بعيدا جدا، في الصحراء. أختها الكبرى، فاطمة، متزوجة وتقطن بالدوار الرئيسي لأولاد مريم. فلم يبق في الكوخ غير الأطفال الصغار وياسمينة، أكبرهم والتي تبلغ من العمر أربعة عشر ربيعا.

هكذا، من فجر ساطع في أصيل كئيب، كانت الصغيرة ياسمينة ترقب مرور ربيع آخر، لا يختلف كثيرا عن سابقيه، والتي اختلطت بذاكرتها.

في أحد المساءات، في مستهل فصل الصيف، كانت ياسمينة عائدة بقطيعها، صاعدة باتجاه تيمقاد المضيئة بآخر أشعة الشمس عند غروبها، حتى السهل كان يشع أيضا، في ذرورية وردية وفي سحنة غاية في الرقة... وياسمينة عائدة وهي تردد أغنية صحراوية حزينة، كانت قد تعلمتها من أخيها سليمان الذي عاد في إجازة، هذه سنة مرت، أغنية تحبها كثيرا:

يا بنت قسنطينة
واش جيت هنا تعملي
أنت يا اللي ماراك بنت بلادي
أنت اللي ما خلقت باش تعيشي بين الكثبان
يا بنت قسنطينة
جيتِ واسلبتِ فؤادي
واديتيه معاك
حلفت بالله العالي تعودي
لكن كي ترجعي لبلاد الصحراء
كي ترجعي للوادي

راكي ما تلقانيش في دار الورود
حوسي علي في دار الخلود

ورويـــدا رويدا تحلـــق الأغنية الحزينة الشـــاكية في الفضاء اللامحدود... ورويدا رويدا تخبو الشمس الساحرة على السهل.

كانـــت هادئـــة للغاية، الـــروح الصغيـــرة الوحيدة الســـاذجة لياســـمينة... هادئة وعذبة كتلك البحيـــرات الصغيرة الصافية والتي تتركها الأمطار للربيع للحظة في المروج الأفريقية السريعة الزوال، وحيث لا شـــيء ينعكس غير اللازورد السرمدي لسماء بلا سحاب...

حين رجعت ياســـمينة إلى الـــدار، أخبرتها أمها بأنه ســـيتم تزويجها إلى محمد لعور، نادل بباتنة.

بكت ياســـمينة أولا لأن محمد لعور كان أعور وذميما، وثانيا لأن هذا الزواج جاء مفاجئا ولم يكن في الحسبان.

ثم هـــدأت وابتسمت، لأن ذلـــك ما كتـــب لها. ومرت الأيـــام؛ لم تعد ياسمينة تذهب إلى المرعى. كانت تخيط بيديها الصغيرتين غير البارعتين جهاز العروس المتواضع لخطيبة بدوية.

لم تفكر أي واحدة من نساء الدوار في أن تسألها ما إذا كانت ســـعيدة بهذه الزيجة. أعطيت للعور كما كان يمكن أن تعطى لأي مســـلم آخر. هكذا كان نظام الأشـــياء، لم يكن هناك أي داع لأن تكون سعيدة فوق العادة ولا أن تكون متألمة كذلك.

بل كانت ياســـمينة تعلم أن قدرها ربما سيكون أحسن بكثير من قدر الأخريات من نساء قبيلتها، إذ إنها ستقطن المدينة، ولن يكون لها إلا الاعتناء بأسرتها وتربية أولادها مثل المغاربة.

وحدهـم هم الأطفـال الذين كانوا يغيظونهـا أحيانا رافعين أصواتهـم: «مرت لعـور! - زوجة الأعور»؛ ولهـذا كانت تتجنب الذهاب عند هبوط الليـل، إلى الوادي قصد جلب الماء مع بقية النساء. هناك بالفعل نافورة في ساحة برج التفتيش، لكن الحارس الرومي موظف من طرف الفنون الجميلة لم يكن يسـمح لأفراد القبيلة بغرف المياه الصافيـة العذبة لتلك النافورة. وعليه كانوا مرغمين على الشـرب من المياه المالحة للوادى والتي كانت صبح مسـاء تنداس من طرف قطعان الماشـية. ومن هنا جاء المظهر المرضي لأفراد القبيلة المصابين دوما بأنواع الحمى الخبيثة.

وجاء الأعور في أحد الأيام يخبر أبا ياسـمينة بأنه لن يتمكن قبل الخريف من إتمام مصاريف الزواج ودفع مهر الفتاة.

كانت ياسمينة قد انتهت من إعداد جهاز عرسها، وكان أخوها الصغير أحمد، الذي خلفها في المرعى، قد سقط طريح الفراش، مما جعلها تسـتعيد وظيفتها كراعية، وتستعيد رحلاتها الطويلة عبر السهول.

حيث كانت تلاحق أحلامهـا الغامضة؛ أحلام عذراء بدائية، والتي لم يغير اقتراب الزواج قدر قلامة في سلوكها.

لم تكن تتمنى أو تبتغي شـيئا. كانت في حالة لاشـعور، وإذن سعيدة.

وكان وقتـذاك بباتنة ملازم أول شـاب، منتـدب في المكتب العربي، قادم حديثا من فرنسا، كان قد طلب المجيء إلى الجزائر، لأنه سئم حياة الثكنة التي قضاها مدة سنتين، بسان سير. كان ذا روح مغامرة وحالمة.

وبســـرعة أصبح صيادا بباتنة، وله رحلات طويلة عبر الريف الجزائري اللاذع والذي سحره سحرا استثنائيا منذ البداية.

وحيـــدا كان ينطلق فجر كل يوم أحـــد، مقتفيا بمغامرة طرق السهل المتحفرة وأحيانا دروب الجبل الضيقة الشاقة.

وفي أحـــد الأيام، وقد أنهكه حر الهاجرة، دفع بفرســـه نحو الـــوادي الضيق الطويل المتوحـــش حيث كانت ياســـمينة ترعى قطيعها.

جالســـة على حجر، تحت ظـــل صخرة صهبـــاء، حيث تنمو أشـــجار العرعر الفواحة، كانت ياسمينة في سهو تلعب بعساليج خضـــراء وتدندن أغنية بدوية حزينة حيث كما في الحياة يتاخم الحب الموت.

كان الضابط مرهقا وقد راقته شعرية المكان المتوحشة.

وحين استقر في خط الظل كي يحمي فرسه من حر الشمس، اقترب من ياســـمينة وهـــو لا يعرف ولو كلمـــة بالعربية قال لها بالفرنسية:

أوَيوجد ماء، ها هنا؟

ودون أن تجيب، نهضت ياسمينة ومضت، جزعة، فارة تقريبا.

لم أنت خائفة مني؟ لن أَمسَّـــك بسوء، قال وقد استأنس بهذا اللقاء.

ولكنها فرت من عدو عرقها المهزوم وابتعدت.

وتتبعها الضابط طويلا بنظراته.

بدت له ياســـمينة رشـــيقة وهيفاء تحت أسمالها الزرقاء، بمحياها المســـمر ذي الصفـــاء البيضاوي، حيـــث تتلألأ في

إبهام خفي العيون الكبيرة السوداء للجنس البربري، بتعبيرها الدكـين الحزين، وهـي تناقـض نافية الانعطاف الشـبقي والطفولي في آن واحد للشفاه المخضبة بلون الدم، والسميكة قليلا. تحيط بهذا الوجه الفاتـن حلقتان حديديتان ثقيلتان، علقتا في شـحمة الأذنـين الوضاحتين. وعلـى الجبين، في الوسط بالضبط، وشـم الصليب البربري خط بالأزرق، رمز غير معروف، وغير معلل عند هؤلاء الأقوام أهل هذه الأرض والذين لم يعتنقوا المسـيحية، والذين دخلهم الإسلام وهم في كامل وحشيتهم ووثنيتهم ليغمرهم بنوره الكبير المترع بالإيمان والأمل.

على رأسها ذي الشعر الثقيل الصوفي الشديد السواد، كانت ياسـمينة تضع منديلا بسـيطا أحمر مطويا في شـكل شريط منفرج مستو.

كل شـيء فيها كان مطبوعا بسحر يكاد يكون صوفيا، والذي لم يستطع الملازم الأول جاك أن يعرف تفسيرا لطبيعته.

مكـث طويلا هناك، جالسـا علـى الصخرة التـي غادرتها ياسمينة، كان يفكر في ياسمينة وفي كل جنسها.

أفريقيـا هذه التي جاءها متطوعـا بدت له مرة أخرى كعالم خيالـي تقريبـا، مجهولة تماما، وغاص به الشـعب العربي بكل مظاهـر طبعه الخارجية في ذهـول عميق. إذ إن عدم اختلاطه شبه الكلي برفقائه، جعله يجهل إعادة الأكليشيهات السائدة في الجزائـر والتي كانت تحمل وبوضـوح العدائية قبليا لكل ما هو عربي وإسلامي.

لـم يزل تحت وقع الفرحـة الكبرى، ونشـوة القدوم الحادة، وبشهوانية استسلم لها.

ينحدر جاك من عائلة نبيلة أردانية، تربى على صرامة معهد ديني في الريف أكسبته عبر سنواته كسان سيري روح جبلي، منغلق نسبيا على «روح العصر»، ميال للتمرد والتهكم، شكاك، لا يرجع عن رأيه، وهذا ما يأخذه بسرعة إلى كل التداعيات المعنوية.

إذن كان يعرف كيف يرى ويفسر الأشياء بنفسه، وينحاز بصدق إلى انطباعاته الخاصة.

حول الجزائر، لـم يكن يعرف إلا الملحمة الرائعة للاجتياح والدفاع، البطولة المبذولة، باستمرار من هنا وهناك على مدار ثلاثين سنة.

غير أنه كان ذكيا وغير ميال للبوح والصراحة مما أكسبه قدرة على تحليل أحاسيسه، وترتيب أفكاره.

هكذا، وفي يوم الأحد التالي، وهو يرى نفسه يأخذ ثانية طريق تيمقاد، كان ينتابه إحساس واضح بأنه لم يأخذ هذا الطريق إلا لرؤية البدوية الصغيرة مرة أخرى.

ولأنه بعد لم يزل صافيا ونبيلا، لم يحاول البتة أن يراوغ أو يزيف مع ضميره. كان يعلم أنه لم يستطع أن يقاوم رغبته في شراء حبات حلوى، من أجل ربط تعارف مع فتاته الصغيرة والتي أسره ظرفها الغريب بطريقة لا تقاوم، والذي أمضى الأسبوع لا يفكر في شيء سواه.

... والآن ذاهب منذ الفجر عبر طريق لمباز الجميل، يستحث

حصانه، مأخوذ بلهفة أدهشته هو ذاته، لم يكن ذلك في الحقيقة إلا فــراغ فؤاده الخــارج من فوره مــن دائرة الغمــوض البهيج للمراهقة، حياته المنعزلة بعيدا عن مســقط رأســه، شبه عذرية أفكارها التي لم تلطخ نصاعتها دعارة باريس، لم يكن ذلك سوى الفراغ الرهيب الذي كان يدفعه نحو المجهول المريك، والذي بدأ يستشفه من خلال الخيوط الأولى لهذه المغامرة البدوية.

... أخيــرا ها هو يتوغل فــي العنق الضيــق العميق للوادي الناشف.

هنــا وهناك، علــى الاكفهرار الرمادي لأشــواك الغابة يلقي قطيع من الماعز بقعة ســوداء بجانب أخــرى بيضاء لقطيع من الغنم.

يبحث جاك في حالة من القلق تقريبا عن قطيع ياسمينة.

ما اســمها يا ترى؟ كم عمرها، هل ترضــى أن تكلمني، هذه المرة، أم ستفر كما في ذلك اليوم؟

كان جاك يسائل نفسه كل هذه الأسئلة في اضطراب متزايد.

ثم كيف سيكلمها وهي لا تفهم كلمة من الفرنسية، وهو لا يعرف ولو لغة مزيج؟

وأخيــرا، في الجهــة المقفرة من الوادي يعثر على ياســمينة، مســتلقية على بطنها بين خرفانها، وهي تمســك رأســها بكلتا يديها.

وبمجرد أن رأته، نهضت، في عدائية من جديد.

متعودة على فظاظــة واحتقار موظفي وعمــال الآثار، كانت تمقت كل ما هو مسيحي.

لكن جاك كان يبتســـم، ولم يكن يبدو عليه أنه يريد بها سوءا. بل كانت ترى أنه شاب ووسيم جدا في بدلته البسيطة من الكتان الأبيض.

بجانبها قربة صغيرة معلقة بين ثلاثة أوتاد في شكل حزمة.

طلب منها جاك أن يشـــرب بالإشـــارة، ومـــن دون أن تجيب أشارت ببنانها إلى القربة.

شـــرب. ثم قدم لها حفنة من قطـــع الحلوى الوردية. من دون أن تتجرأ على مد يدها قالت في خجل، تصحبه نصف ابتسامة وهي ترفع عينيها لأول مرة في وجه الرومي:

واش نوا، ما هذا؟

إنها لذيذة، رد ضاحكا من جهلها، لكنه كان في الوقت نفســـه سعيدا لأن

الجليد ذاب أخيرا.

قضمت قطعة من الحلوى ثم فجأة وبنبرة فظة قليلا قالت:

شكرا!

لا،لا، خذيها كلها!

شكرا! شكرا! سيدي! شكرا!

- ما اسمك؟

لم تفهم لمدة، وأخيرا ولأنه راح يذكر كل أسماء النساء العربية التي يعرفها، ضحكت وقالت:

- سْمينة (ياسمينة).

حينهـــا، أراد أن يجلســـها إلى جانبه لمواصلـــة الحديث. غير أنها - وقد أصابها هلع مفاجئ - فرت مسرعة.

في كل أسبوع، حين يقترب يوم الأحد، يحدث جاك نفسه، بأن ما يقوم به خطأ جسيم، وأن عليه أن يترك هذا الكائن البريء في سلام، فكل شيء يفرق بينهما ولا يمكنه إلا أن يجره في كل حال إلى ضفة العذاب... لكنه ما عاد حرا في الذهاب إلى تيمقاد أو البقاء بباتنة ويذهب...

لم يبق إلا القليل، وياسمينة لم تعد تخشى من جاك. في كل مرة كانت تجيء من نفسها لتجلس بجنب الضابط، وهي تحاول أن تفهمه أشياء كثيرا ما كانت تغيب عنه معانيها رغم مجهودات الفتاة. ولما تدرك أنها لن تفلح في إفهامه، تطلق عنان ضحكتها... وحينئذ، تسفر ضحكة تلك الحنجرة التي تقلب رأسها إلى الوراء عن أسنان حليبية البياض، مما يبعث في نفس جاك إحساسا بالرغبة.

في المدينة، كان جاك يبذل قصارى جهده لتعلم اللغة الجزائرية... وكانت حماسته تثير ضحك رفقائه الذين يتهكمون قائلين: «لا بد أن هناك امرأة عربية وراء كل هذا».

جاك يحب الآن ياسمينة بجنون، بكل العنفوان الطافح للحب الأول، لرجل يتسم بالشهوانية والحلم في الوقت نفسه، رجل يمتزج عنده حب الجسد بالروح، ويضفي عليه شكل حنان حقيقي...

بيد أن ما يحبه جاك في ياسمينة، على جهله بالروح البدوية، هو ذاك الكائن الخيالي تماما، والخارج من مخيلته، وغير المشابه للواقع والحقيقة تماما.

مبتسمة، مع ظل كآبة في نظراتها، كانت ياسمينة تستمع إلى جاك وهو ينشـــد بتهور وبلا مهارة مرة أخرى وكل عشـقه الذي ما عاد يحاول كبح جماحه.

مســتحيل، قالت وفـــي صوتها نبرة حزن كئيبـــة. أنت رومي، كافر، وأنا مســلمة. تعلــم هذا حرام عندنا، أن تتزوج المســلمة مسيحيا أو يهوديا؛ ومع ذلك أنت وسيم وطيب. أحبك...

في أحد الأيام بكل ســذاجة أخذت يــده وقالت، وفي عينيها نظرة حنون: أســلم...إنه بسيط جدا! ارفع يدك اليمنى، هكذا، وقل معي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ببطء، متخذا الأمر لعبة بســيطة، ومـــن أجل إرضائها، أعاد تلك الكلمات الرخيمة الجليلـــة والتي، يكفي أن تنطق بإخلاص وصدق كي تربطك نهائيا بالإســـلام... لكن ياسمينة لم تكن تعلم أنـــه يمكن أن نقول هـــذه الكلمات من دون أن نؤمـــن بها، كانت تعتقد أن ذكر كلمات الشـــهادتين، والمجاهرة بالإيمان وحدهما، يجعلان من جاك الرومي مؤمنا... وجاك، جاهلا بالأفكار الفجة والبدائية التي يحملها الشـــعب الأمي عن الإسلام، لم يكن يعلم ويقدر مدى وقيمة ما فعل.

في ذلك اليوم، وعند المغادرة وبعفوية وضحكة بهيجة، أعطته قبلة، الأولى... كانت بالنســـبة إلى جاك النشوة الكبرى والثمالة السرمدية.

ومنـــذ ذلك الوقـــت، كلما كان غير مشـــغول، تحـــرر لبعض الساعات، وينطلق خافق القلب، مسرعا باتجاه تيمقاد.

لـــم يعد جاك البتة روميا أو كافرا بالنســـبة إلى ياســـمينة،

لقد شهد بالوحدانية المطلقة لله، وبرسالة نبيه. وفي أحد الأيام وبكل بساطة وبكل العشق المفعم بالحيوية التي يتمتع بها جنسها، سلمت نفسها...

وعاشا لحظة فناء لا توصف، ليستفيقا بعدها وقد استنارت الروح بنور جديد، كأنهما خرجا من فورهما من عوالم الظلام.

... لقد غدا جاك الآن بمقدرته أن يهمس لياسمينة بكل الأشياء الرقيقة أو المؤلمة المترعة بها روحه، بقدر تطوره في اللغة العربية الذي كان سريعا... أحيانا كان يتوسلها أن تغني. حينئذ، وهو مستلق بجنب ياسمينة، يضع رأسه على ركبتيها، مغمض العينين، ويغيب راحلا عبر أحلام لذيذة، غامضة.

منذ فترة، كانت تراوده فكرة غريبة وعلى الرغم من علمه بصبيانيتها واستحالة تحققها، كان يستسلم لها، لما كان يجد فيها من متعة غريبة... أن يترك كل شيء، أن يتخلى عن عائلته، في فرنسا، أن يظل بأفريقيا ليعيش إلى الأبد مع ياسمينة... وحتى الاستقالة والرحيل معها أبدا وتحت البرنوس والعمامة، ليعيش حياة وئيدة، خلي البال في أحد قصور الجنوب... حين يكون جاك بعيدا عن ياسمينة، يسترد كل وعيه، ويبتسم من تلك التصرفات الصبيانية البئيسة... لكنه بمجرد أن يجد نفسه إلى جوارها، يستسلم إلى خنوع ذهني ذي رقة لا توصف. كان يأخذها بين ذراعيه، يغوص بنظراته في ظل عينيها، ويعيد إلى ما لا نهاية هذه الكلمة العربية الرقيقة جدا والمفعمة بالمحبة والحنان:

- لعزيزة! لعزيزة! لعزيزة!

لم تفكر ياسمينة قط في مآل حبها هذا لجاك. كانت تعلم أن كثيرات من بني جنســها لهن عشــاق، ويخفين ذلك بعناية شـديدة على أهاليهن، وأنه عموما مـا تنتهي هذه العلاقات بالزواج.

كانـت تعيش اللحظة، سـعيدة، بكل بسـاطة فقط، من دون تفكير ومن دون أي رغبة أخرى عدا استمرار سعادتها إلى الأبد.

أما جاك فكان يرى بوضوح أن حبهما لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال أبد الدهر. لأنه يدرك اسـتحالة زواج بينه - هو وله أسـرة هناك بفرنسا - وبينها هي هذه البدوية الصـغيرة، والتي لا يمكن أن يفكر حتى في نقلها إلى محيط آخر، إلى أرض بعيدة وغريبة عنها.

لقد أخبرته بأنه سـيتم تزويجها إلـى قهواجي بالمدينة، في نهاية الخريف.

ولكن كم كانت بعيدة نهاية الخريف.

جاك أيضا كان يستسلم إلى نشوة اللحظة...

حين يريدون تزويجي بالأعور سـتأخذني وتخبئني في مكان ما في الجبل، حيث الأشجار الكبيرة المعمرة أكثر من كل الشيوخ الكبـار، وحيث الماء المنعش العذب الرقـراق تحت الظل. وأيضا حيث العصافير ذوات الريش الأحمر والأخضر والأصفر تغني...

«أريد أن أسمعها وأنام تحت الظل، أشرب من الماء العذب... سـتخبئني في الجبل وسـتأتي لرؤيتي كل يوم... سأتعلم الغناء مثل العصافير، وسـأغني لك. ثم سأعلمها اسمك كي تردده لي حين تغيب».

كانت ياسـمينة أحيانا تحدثه على هـذا النحو، وفي نظرتها الغريبة رزانة ووقار وتأجج...

لكن تقول إن عصافير جبل طوقور عصافير مسـلمة... ولن تعرف تغريد اسـمك الرومـي... لن تعرف مناداتك إلا باسـم مسلم... وأنا من سيعطيكه كي أعلمها إياه... سأسميك مبروك، سيكون هذا فألا حسنا لنا.

... لقد أصبحت هذه اللغة العربية بالنسبة إلى جاك موسيقى عذبـة، لأنها كانت لغتها، وكل ما كان لها يسـكره. جاك لم يعد يفكر، كان يحيا اللحظة فقط.

وكان سعيدا.

علم جاك يوما، أنه عين لمنصب آخر في الجنوب الوهراني.

قـرأ القرار المحتوم وأعاد القراءة من دون أن يفهم معنى آخر غيـر الرحيل ومغادرة ياسـمينة، وتركها تتـزوج من ذاك النادل الأعور وعدم رؤيتها إلى الأبد.

لأيام وأيام، وهو يبحث في يأس عن أي مبرر يمنعه من السفر، تبادل مع أحد رفقائه... لكن دون جدوى.

وإلـى آخـر لحـظة، مـادام يبقي في نفسـه بصيصا من أمل لم يشأ أن يخبر ياسمينة بالمصيبة التي ستعصف بهما.

وخلال لياليه الموسومة بالأرق والحمى، كان يتوصل إلى اتخاذ قـرارات نهائية: مرة يفكر في المجازفة بإطلاق العنان للفضيحة ومـا ينجر عنها من اختطاف وزواج. ومرة أخرى يفكر في تقديم اسـتقالته، والتخلي عن كل شـيء من أجل ياسمينته، كي يصبح في الحقيقة مبروك ذاك الذي تحلم أن تصنعه منه... لكن فكرة

تتدخــل دوما لإيقافه؛ هناك في الآردان أب عجوز وأم قد ابيض شــعرها ســيموتان حزنا لا محالة إذا قام ابنهما «الملازم الأول جاك الوسيم» كما ينادونه في البلد، بكل هذه الأشياء التي تراود ذهنه الملتهب، في الساعات البطيئة لليالي المضنية.

كانت ياســمينة قد لاحظت الحزن والكآبــة المتفاقمين لدى مبروكهــا لكنه - غير قادر بعد على البــوح لها بالحقيقة - كان يقول لها إن أمه العجوز مريضة هناك بفرنسا.

وياسمينة تحاول مواساته وتلقينه حتميتها الهادئة.

مكتوب، قالت، كلنا تحت رحمة الله وسنموت جميعا، كي نعود إليه...لا تبك؛ يا مبروك، هذا مكتوب.

«نعم، فكر بمرارة، سنضطر كلنا، اليوم أو غدا إلى فراق كل ما هو عزيز لدينا إلى الأبد... لماذا إذن يفرقنا القدر قبل الأوان هذا المكتوب الذي تتحدث عنه ونحن لم نزل على قيد الحياة كلانا؟»

أخيرا، أيام قليلة قبل اليــوم المحتوم المحدد لانطلاقه، ذهب جاك إلى تيمقاد... وقلبه مترع بالمخاوف والكآبة، قول الحقيقة لياسمينة. غير أنه لم يكن يريد إطلاقا أن يخبرها بأن فراقهما سيكون على الأرجح، بل بالتأكيد، نهائيا...

لقد حدثها عن مهمة ستستغرق ثلاثة أو أربعة أشهر.

كان جاك ينتظر انفجارا ليأس شجي حزين...

لكنها، واقفة أمامه، لم تنبس ببنت شــفة. لقد اســتمرت في التأمــل في وجهه، كمن يريد أن يقرأ في عمق أفكاره الدفينة... أربكته كثيرا تلك النظــرة العميقة والمفرغة من كل تعبير، والتي بإمكانه تفهمها... يا إلهي! هل ستعتقد أنه يتركها طوعا؟

كيف السبيل لشرح الحقيقة، كيف يمكنه إقناعها بأنه لم يعد سيد نفسه؟ بالنسبة إليها، الضابط الفرنسي كائن قادر على كل شيء تقريبا، له الحرية المطلقة فيما يريد.

... واستمرت ياسمينة في النظر إلى جاك وجها لوجه، العينان في العينين، لم تزل محتفظة بالصمت...

لم يستطع تحمل تلك النظرة التي تتراءى مدينة له طويلا.

فطوقها بين ذراعيه:

يالعزيزة! لعزيزة! قال، أنت غاضبة مني! ألا ترين أن قلبي يتمزق ألما، وأني ما رحلت عنك أبدا، لو فقط كان بإمكاني البقاء..

قطبت حاجبيها الدقيقين الأسودين.

أنت تكذب! قالت، تكذب! أنت لم تعد تحب ياسمينة، خليلتك، امرأتك، خادمتك، تلك التي أخذت منها عذريتها. أنت من يريد الرحيل!... وتكذب مرة أخرى حين تقول إنك قريبا ستعود... لا لن تعود أبدا، أبدا، أبدا!

تراءت لجاك هذه الكلمة المكررة بعناد وبنبرة جلية تقريبا كأنها قرعة شبابه الجنائزية.

أبدا! أبدا! كان هناك في الصوت ذاته لهذه الكلمة شيء ما من الجزم والقطعية والمتانة والحتمية.

نعم، إنك راحل ... للتزوج من رومية هناك بفرنسا.

وتأججت شعلة كئيبة في العيون الكبيرة الصهباء للبدوية. وتملصت بخشونة تقريبا من حضن جاك، وبصقت على الأرض، باحتقار، في حركة نقمة شرسة.

كلاب وأولاد كلاب، كل الروم!

آه يا ياسمينة كم أنت متعسفة في حقي! أقسم لك إني توسلت لكل رفقائي الواحد تلو الآخر، كي يذهب أحدهم في مكاني... ولكنهم رفضوا.

آه أنت ترى بنفسك أن ضابطا حين يرفض الذهاب، فلن يذهب!

ولكن رفقائي، أنا من توسلهم للذهاب في مكاني، وهم لا يخضعون لسلطتي... أما أنا فأخضع لسلطة الجنرال، وسلطة وزارة الدفاع...

لكن ياسمينة - غير مصدقة - بقيت عدائية ومتصلبة.

وتأسف جاك على عدم حدوث انفجار اليأس الذي خشيه كثيرا في الطريق.

ومكثا طويلا هكذا، صامتين، منفصلين حاليا بهوة عميقة، بكل هذه الأشياء الأوروبية التي تسيطر باستبداد على حياته، والتي لا يمكن لياسمينة أن تفهمها أبدا.

وأخيرا بكى جاك، والقلب يطفح بالمرارة، ورأسه ملقى على ركبتي ياسمينة.

حين رأته في يأس يجهش بالبكاء، أدركت أنه كان صادقا... أمسكت بالرأس الغالية الحبيبة وشدتها إليها، باكية هي الأخرى، أخيرا.

مبروك! بؤبؤ العينين! نوري! يا بقعة صغيرة سوداء على القلب! لا تبك، سيدي! لا تذهب، يا سيدي. إذا كنت تريد الذهاب فسأرقد في طريقك وأموت. وإذن فستضطر إلى المرور

على جثة ياسمينتك. أو إذا كان لا بد من ذهابك، فخذني معك. سأكون أمتك. سأعتني ببيتك وحصانك... وإذا مرضت، أعطيك دم شـــراييني كـي تشفى ...أو أمـوت بـدلا عنـك. يا مـبروك! يا سيدي خذني معك...

ولأنه بقي صامتا، منكسرا أمام استحالة ما تبتغيه، أردفت قائلة:

إذن، هيا، ضع ملابس عربية. لنهرب معا إلى الجبل، أو أبعد من ذلك إلى الصحراء، إلى بلاد الشعانبة والطوارق... ستصبح مسلما كلية، وستنسى فرنسا...

لا أســتطيع... لا تطلبي مني المســتحيل. لي والدان عجوزان هناك، بفرنسا، وســيموتان غما... آه! الله وحده يعلم كم أرغب في إبقائك إلى جانبي، إلى الأبد.

كان يحس بشــفتيها الدافئتين وهما تلامســان بنعومة يديه، وفــي غمرة تدفق دموعهما الممزوجة... أيقظت في نفســه تلك الملامســة أفكارا أخرى، وعاشــا مرة أخرى لحظــة أخرى من الغبطة العميقة جدا، والمطلقة تماما، لم يعرفا شــبيها لها حتى في سعادتهما الهادئة.

ولكن أخيرا، دقت الســاعة الجليلة للــوداع... وداع أحدهما يعلم والآخر يستشعر بأنه الوداع الأبدي...

وضعا في قبلتهما الأخيرة، رحيق روحيهما...

مكثت ياسمينة في مكانها تستمع إلى رجع وقع حوافر حصان جاك طويلا... ولما لم تعد تسمعه، وعاد المكان إلى صمته الثقيل المعهود، ألقت البدوية الصغيرة بوجهها على الأرض واســتغرقت في البكاء...

مر شــهر على سفر جاك، وياســمينة لم تزل تعيش نوعا من الخمود الحزين.

طــوال اليوم، وحدها من الآن فصاعــدا في واديها الموحش، تبقى ياسمينة مستلقية على الأرض، بلا حراك.

في عمــق ذاتها، لا ثورة على المكتوب الذي تعودت عليه منذ نعومة أظافرها، وأن تسند إليه كل ما يحدث لها من خير أو شر على السواء... فقط ألم حاد ووجع مستمر، بلا مهادنة أو توقف، العذاب الفظ والجائر للكائنات غير الواعية، أطفال أو حيوانات، والذين لا يملكون حتى العزاء المر لفهم لماذا وكيف يتعذبون...

مثل كل البدو الرحل. مزيج مشــوب حيث ضاع الدم الآسيوي وسط القبائل من السكان الأصليين، شاوية، بربر، الخ... لم تكن تعرف ياسمينة عن الإسلام إلا فكرة مبهمة. كانت تعرف – دون أن تدرك مع ذلك ماذا يعني – أن هناك إلها، واحدا، أحدا، أزليا، خلق كل شيء، وهو رب العالمين وأن محمدا رسوله وأن القرآن هو التعبير المكتوب للدين. كانت تعرف أيضا قراءة سورتين أو ثلاث من السور القصار والتي لا يجهلها أي مسلم.

لم تكن تعرف ياســمينة من الفرنسيين إلا أولئك الذين كانوا يحرســون الآثار ويعملون فــي الحفريات.، وتعرف كم قاســت منهم قبيلتها. واســتنتجت من هنا أن كل الفرنسيين هم الأعداء اللــدودون للعرب. بذل جاك كل جهوده كي يشــرح لها أن هناك فرنســيين لا يحقدون البتة على المســلمين... لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أنه يكفي بعض من الموظفين الجهلاء الغلاظ الطبع كي يعيد فرنسا ممقوتة في عيون القرويين البسطاء الأميين.

كانت ياسـمينة تسمع كل عرب الضواحي يشتكون من دفع الضرائب الباهظة، وكيف هم مرعوبون من الإدارة العسكرية، كيـف نهبت أموالهم... واسـتنتجت أنه على الأغلب أن هؤلاء الفرنسيين الطيبين والإنسانيين والذين يتحدث عنهم جاك لم يقدموا إلى بلادها، وأنهم بقوا بعيدا، في مكان ما.

كان كل هـذا غامضا ولم يشـغل بالها علـى الإطلاق، في ذهنيتها البسيطة الجاهلة، حيث تنام بعمق القوى الحية.

لم تبدأ إعمال فكرها وعلى نحو غامض، إلا بعد أن أحبت.

فيمـا مضـى، حين كان جـاك يغادرها للعودة إلـى باتنة، تبقى متأملة. ماذا يفعل هناك؟ أين يعيش؟ هل يلتقي بنسـاء أخريات، روميات يخرجن بلا حجاب ولهن فساتين من الحرير وقبعات كتلك التي يرتدينها النسوة اللائي يزرن الآثار؟ حينئذ اشتعلت موجة من الغيرة في قلبها.

ومنـذ أن غادر جاك إلى الجنوب الوهراني البعيد، تعذبت ياسمينة كثيرا، وبدأ يتأكد ذكاؤها.

أحيانا، في خلوتهـا الكئيبة تطلق العنان لصوتها لتردد كل الأغانـي الحزينة التي أحبها، فتغلبهـا الدموع، ليقطع نحيب شـجي تلك المقاطـع الغنائيـة، منادية مبروكهـا العزيز بكل الأسـماء التي تعودت مناداته بهـا، مترجية إياه أن يعود، كأنه يسمعها.

لقد كانت أمية، لذا كان لا يمكن لجاك أن يراسـلها، وهي لن تتجرأ أن تظهر رسـائل المـلازم الأول لأي كان من أجل ترجمة معانيها.

وفي أحد أيام الأحد، بينما كانت غارقة في أحلامها الحزينة، شـاهدت فارسـا عربيا يمتطي حصانه الرمادي المندفع، قادما من جهـة باتنة. دفع الفارس الذي كان يرتدي بدلة الصبائحيين باتجاه الوادي. كان يبدو كأنه يبحث عن شـخص ما. وحين رأى الفتاه بادرها بالسؤال:

أولست أنت سمينة بنت الحاج سالم؟

من أنت، وكيف لك بمعرفتي؟

إذن، فأنت هي! أنا الشريف بن علي الشعانبي، ملازم أول في الجيش الفرنسي، وصديق لجاك. أولست أنت من كنت خليلة له؟

حاولت ياسـمينة الهرب وقد ذعرت حين رأت أن سرها الآن في حوزة مسـلم. لكن الضابط أمسـكها مـن معصمها، مرغما إياها على البقاء بالقوة.

أين تذهبين يا بنت الحرام، قطعت كل هذه المسافة لكي أراك، وتهربين.

كانت تحاول التملص ولكن من دون جدوى.

اتركني! اتركني! أنا لا أعرف أحدا، لم أكن خليلة لأحد!

وراح الشريف يقهقه.

بلى، كنت خليلته، يا بنت الحرام! وكنت سأقطع رأسك لولا أن جاك بمنزلة أخ لي. تعالي إلى هناك، في عمق الوادي لا يجب أن يرانا أحد. لك عندي رسالة من جاك وسأقرأها لك.

وبفرح غامر راحت تضرب بيديها.

أخبرها جاك في رسـالته بأنها يمكـن أن تثـق بالشـريف،

وأنــه يمكنها إذا أصابها مكروه أن تتصل به. وأنه لا يفكر إلا فيها، وأنــه لم يزل على العهد مخلصا ووفيا لها، لينهي خطابه بالقســم على أنه سيظل يحبها، ولن ينساها أبدا، وأنه سيعود يوما ليأخذها.

عهود جميلة، وحزم شــباب محتوم، سيمحوه الزمن ويطمس معالمه سريعا كل الأشياء الأخرى!...

توسلت ياسمينة إلى الشريف أن يجيب جاك بأنها هي أيضا لم تزل تحبه، وستبقى مخلصة له مدى الحياة، وأنها ستبقى أمته الخاضعة المحبة، وأنها تتمنى أن تكون التراب الذي تحت قدميه.

ابتسم الشريف.

لو أحببت رجلا مسلما، قال، لتزوجك حسب الشرع، ولما كنت هنا الآن تذرفين الدموع...

مكتوب!

وامتطى الضابــط صهوة جواده الرمادي، وانطلق مســرعا، مثيرا سحابة من الغبار.

كان جاك يخشــى أن يثير انتباه ســكان الدوار فأجل طويلا إرســال خطاب ثان إلى ياسمينة... طويلا إلى حد أنه حين أراد ذلك علم أن الشريف قد غادر إلى منصب آخر بالصحراء.

ورويدا، رويدا بعد اليأس الكبير للحظة الأولى تسللت السكينة إلى قلب جاك.

في القصر الوهراني حيث كان يعيش، تعرف جاك على رفقاء فرنســيين متميزيــن، ومثقفين جــدا، وكان أحدهم يملك مكتبة ثرية. وراح ينهل من الكتب، ويدرس مسائل كانت إلى ذلك الحين غريبة مجهولة لديه... وتفتح عقله على آفاق جديدة...

وبعـــد مدة من الزمن غير منصبـــه. في جيريفي، تعرف على شابة إسبانية جميلة وأغرم بها.

وهكذا تباعدت الصورة الفاتنة لياسمينة في الأمواج البعيدة للذاكرة، حيث تسربل كل شـــيء بضباب كثيف لينتهي في اللجة العميقة للنسيان التام...

وأخيـــرا جاء محمد الأعور يبلغ بأنه فـــي إمكانه الآن تغطية مصاريف الزواج.

وحدد تاريخا قريبا جدا لإقامة حفل الزفاف.

واستسلمت ياسمينة بسلبية لقدرها...

وبغريزة المحب الوله، أحســـت ياســمينة بـــأن جاك قد طوى صفحتها، فأصبح مذ ذاك الأمر بالنسبة إليها سيان.

وعلـــى الرغم من ذلك كانت تنتابها لحظات كآبة تعصر قلبها حين تذكر هذا الزواج، ولأنها تعرف عادات شعبها، لم يكن صعبا عليها أن تتوقع غضب زوجها، حين يكتشف أنها فقدت عذريتها.

كانت متأكدة أنها ستغدو زوجة القهواجي الأعور، حين فجأة شب نزاع مصالح بين الحاج سالم والأعور.

ولم تمض إلا أيام قليلة، حتى علمت ياســمينة أنها ســتعطى لرجل لم تره إلا مرة واحدة، صبائحي، عبدالقادر بن إسماعيل، شـــاب وســـيم، عرف عنه أنه شـــجاع وغير مطيـــع، لوحظ في الخدمة العسكرية سلبيا عدة مرات بسبب طبعه المتمرد، إلا أنه كان محترما ومحبوبا لدى رؤسائه لشجاعته وذكائه.

تزوج ياســـمينة عن حب، وقد وجدها جميلة، في تفتح ربيعها الخامس عشر... فقدم للحاج سالم مهرا أكبر من ذاك الذي وعد

به الأعور. وفوق هذا كله، فإن مصاهرة هذا الشاب المنحدر من عائلـة من قالمة على الرغم من خصامه مع والديه بعد انخراطه في الجيش، أرضت كبرياء الشيخ.

واستمر العرس ثلاثة أيام، في الدوار أولا، ثم في المدينة.

في الدوار، أطلقت بعض الأعيرة النارية من البنادق، والكثير من المفرقعات، كما نظم سـباق لجيـاد جائعة، تخللته صرخات عالية تحمس الرجال والجياد...

أما في المدينة فقد رقصت النسوة على أنغام البناديرو والغايطة البدوية.

متشحة بعدة قمصان من قماش الموسلين الأبيض ذي الأردان الطويلة والواسعة الباغودية، وقفطان من المخمل الأزرق والمزين بشـرائط ذهبية، وقندورة وردية من الحرير، وقد غطت شعرها بشاشية صغيرة مسـتدقة الرأس، كرزية وخضراء، مزينة بحلي ذهبية وفضية، كانت ياسمينة متربعة على عرش الحجرة، تجلس بين النسوة على الكرسي الوحيد بها، بينما كان الرجال يحتفلون بالخارج، في الشارع وعلى مقاعد المقاهي العربية المقابلة.

ومن النسـوة علمت ياسـمينة بمغادرة الشـريف الشعانبي، وانطفأت جذوة الأمل الأخيرة التي كانت محتفظة بها: لن تعرف أبدا إذن شيئا عن جاكها.

في المسـاء، عندما أصبحت وحيدة مع عبدالقادرلم تستطع ياسـمينة أن ترفع عينيها في عيني زوجها. مضطربة، تفكر في انفجار غضبه الوشيك وفي الفضيحة التي ستنجم عنه، هذا إذا لم يقتلها في الحين ذاته.

لــم تزل تحب روميها، واســتبدال الفــارس العربي بالأعور لــم يبعث الفرحة إطلاقا في نفســها... على العكس، فقد كانت تعلم أن الأعور يقترب في طبعه من الطفل الطيب، بينما اشــتهر عبدالقادر بأنه رجل عنيف وشرس...

... عندمــا علم بما لا تســتطيع ياســمينة إخفــاءه، اجتاح عبدالقادر غضب شــديد، خاصة أنه كان مغرما بها. فشرع في ضربها بقســوة ووحشــية ثم طلب منها أن تكشــف له عن اسم عشيقها.

إنه ضابط... مسلم... منذ زمان طويل... وقد رحل...

مذعورة من تهديدات زوجها، فأعطته اسم الضابط الشعانبي: بمــا أنه غير موجــود، ماذا يهم؟ لم ترد أن تبــوح بالحقيقة، أن تعترف بأنها كانت عشيقة لفرنسي، فهذا لن يزيد إلا من فظاعة خطئها في عيني عبدالقادر...

لكن شــغف الفارس العربــي كان أقوى من غضبه... على كل حال، أكيــد أن الضابط لم يتكلم وقد غادر الآن، ولن يكتشــف سره أحد.

أبقى عبدالقادر على ياســمينة ببيته، لكنه أصبح سبب ذعر دوار الحاج ســالم، حيــث يذهب باســتمرار للمطالبة بالمال من صهريــه اللذين أصبحا يخافانــه، وقد ندما علــى عدم تزويج ابنتهما لمحمد الأعور الهادئ الطيب.

في صمت وحزن كبيرين مســتديمين، كانت ياسمينة تقضي كل أيامهــا في خياطة قمصان رديئــة من الكتان، والتي تأخذها دوجة العمة العجوز للفارس إلى تاجر ميزابي.

هناك بالمنزل أيضا، أخت عبدالقادر، التي ستتزوج عن قريب بأحد رفقاء أخيها.

حين لا يكون الفارس سـكرانا، يحـدث أحيانا أن يحمل إلى زوجته بعض الهدايا، بعض الخرق لزينتها، وحتى الحلي، والفواكه والحلوى... يصرف كل ما في رصيده عليها. ولكن أحيانا أخرى، يدخل البيت سكرانا، وإذن فالويل لها منه.

واسـتمرت ياسـمينة غير مبالية، لا بالمداعبة ولا بالضرب، قد التزمـت الصمت، كانت تختنق بين الجدران الأربعة البيضاء للساحة المغاربية، حيث كانت مسجونة، وهي تتأسف بمرارة على تلك الرحابة وذاك البراح الطليق في مسقط رأسها. وتلك الآثار العظيمة المتوعدة، وواديها الموحش.

كان عبدالقادر يدرك أن زوجته لا تحبه، وهذا ما يغيظه.

فيتمادى في ضربها بكل وحشية.

ولكن، بمجـرد أن يراها وهي تـذرف دموعها، يحضنها بين ذراعيه، ويغرقها قبلا للأخذ بخاطرها.

وياسـمينة بكل العناد، تسـتمر في حب روميها، مبروكها... أفكارها دوما تحلق باتجاه الجنوب الوهراني الذي لا تعرف عنه شيئا حيث تعتقد أنه لم يزل هناك.

كانت تتسـاءل في حزن عما إذا كان سيعود مبروك أم لا؟...

فإذا ما خلت بنفسها، استسلمت للبكاء الصامت المسهب.

نسـي جاك منذ زمان، حلم الحب ذاك الذي عاشه في فجر حياته، في سهل تيمقاد المقفر والذي لم يعمر إلا صيفا واحدا.

لم تمر سـنة تقريبا على زواجه، حتـى حكم على عبدالقادر

بعشر سنوات من الأشغال العمومية بسبب واقعة ضد رئيس سام خارج العمل...أخته تبعت زوجها إلى الصحراء أما العمة العجوز فقد توفيت.

وبقيت ياسمينة وحدها من دون مصدر رزق.

لم تشأ العودة إلى قبيلتها.

لقد احتفظت بذلك الطبع الداكن، الصامت الذي أصبح مميزا لها بعد رحيل جاك... لم تكن تريد أن يزوجوها مرة أخرى، وقد أصبحت الآن أرملة، تريد أن تبقى حرة لانتظار مبروكها.

ولا بد أن الزمن لديها أيضا، قد خفف عذاب القلب... لكنها لم تجد شيئا يعوضها عن حبه، واستمرت في حب الغياب، الذي منذ زمان لم تعد تتجرأ حتى على الحلم بعودته.

عندما نفدت الدريهمات الأخيرة، التي تركها لها عبدالقادر، هيأت أسمالها في رزمة وأعادت المفتاح إلى صاحبة المنزل.

وعندما أسدل الليل ستائره، غادرت باتجاه القرية السوداء، والتي لا تبعد عن باتنة إلا بخمسمائة متر - أرضية عراء حيث يوجد المسجد.

هذه القرية عبارة عن ركام من الأكواخ الخشبية أو من الطوب، أكواخ وسخة ومتهدمة، تقطنها مجموعة من العاهرات الزنجيات، والبدويات، والمغربيات، واليهوديات والمالطيات، يعشن هناك متراكمات بلا نظام، مع نماذج عديدة من الرجال المشبوهين، أكثريتهم من القوادين والمجرمين.

هناك مقاه مغاربية حيث ترقص النساء وتغني حتى العاشرة

ليلا، وحيث يدخن الحشيش بعد غلق الأبواب، طيلة الليل. ذلك هو مكان اللهو بالنسبة إلى عسكريي الحامية.

تعرفت ياسمينة في الوقت الذي بقيت فيه وحيدة على مغاربية تعيش في القرية السوداء برفقة زنجية من أولاد ريغ.

كانت زهرة وسمراء تعملان بماخور يديره رجل يدعى ألي فرانك، يدعي أنه مسلم وتونسي، غير أن اسمه يدل على أصل آخر، وعلاوة على ذلك، له سوابق عدلية وهو مراقب من طرف الشرطة.

وقد نصحت المغنيتان ياسمينة بالمجيء ومشاركتهما غرفتهما، ورسمتا لها بريق وامتيازات ظروف حياتهما المزعومة.

ولما أحست بأنها مهجورة ووحيدة تماما، التحقت بالصديقتين اللتين استقبلتاها بكل فرح.

في ذاك المساء، كان الظهور الأول لياسمينة بالمقهى كي تغني.

كان ذلك في قاعة كبيرة منخفضة، يملأها دخان السجائر، حيث أرضيتها المسكونة بالعقارب، مدروسة، وجدرانها المطلية بالجير كانت مغطاة بكتابات ورسوم دونها الزبائن، معظمها بذيء، مخل بالحياء حد البهيمية، وعلى طول الجدارين المتوازيين صفت طاولات ومقاعد، تاركة فضاء واسعا في الوسط. وهناك في العمق طاولة خشبية تستعمل كطاولة شرب، وضعت خلفها شبه مصطبة مغطاة بحصائر قديمة.

كانت الراقصات جالسات القرفصاء، عددهن سبع؛ ياسمينة، وصديقتاها، وبدوية تدعى حفصية، وعنابية تدعى عائشة ويهوديتان، سطيطرة وراحيل، هذه الأخيرة من الكاف، كانت

ترتدي البدلة التونسية للراقصات، لابسة على موضة مصر: سروال عريض أبيض، وسترة حريرية صغيرة ذات ألوان، والشعر متموج، معقود فقط بشريط أحمر، تنتعل خفين صغيرين من الساتان بكعب عال.

كلهن يتزين بحلي ذهبية، يضعن حلقات ثقيلة في آذانهن. ما عدا البدوية والزنجية فقد كانتا ترتديان لباسا صحراويا، ستار واسع أزرق داكن، مشبوك على الكتفين مكونا جلبابا . وعلى الرأس تسريحة معقدة، متكونة من جدائل كبيرة من الصوف الأحمر ملوية مع الشعر على الأصداغ، ومناديل منضدة، وجواهر معلقة على سلاسل. وعندما تقف إحداهن للرقص في القاعة بين المتفرجين، تمكث الأخريات على المصطبة يغنين، ويضربن بأيديهن وبالدفوف، بينما غلام يعزف على الشبابة العربية، ويهودي يعزف برداءة على ضرب من الماندولين.

كانت أغانيهن، وحركات رقصن تتميز بصفاقة متأججة تلهب تدريجيا المتفرجين الكثر في ذاك المساء.

كانت الدعابات والإطراءات الفجة تهطل بالعربية، والفرنسية الممزوجتين قليلا أو كثيرا بالدارجة.

تبدين مكتنزة يا صبية! قال شاب مبتهج من بالفيل منفي في أفريقيا، وهو يبدو في حالة إعجاب أمام ياسمينة، حين نزلت بدورها إلى القاعة.

جدية وحزينة كعادتها، متسربلة باستسلامها وبحلمها، كانت ترقص لأولئك الرجال الذين ستكون فريسة لهم بمجرد غلق الماخور.

رآهـــا عريف مـــن الصبائحيـــين كان يعـــرف عبدالقادر بن إسماعيل فتعرف عليها من فوره.

انظروا! قال، ها هي زوجة عبدالقادر، الرجل بالسجن والمرأة بالحانة... الأمور تسير رغم كل شيء!

وكان هـــو من التحق بياســـمينة تلك الليلة فـــي المخدع الذي تستعمله كغرفة.

كان البـــدر يصّاعد هناك، في الشـــرق، خلـــف القمم المعتمة لجبال الأوراس...

لمعان أزرق اللون ينزلق على الجدران والأشـــجار، ملقيا ظلالا عميقـــة على الأماكـــن المظلمة والزوايا المخبـــأة التي كانت تبدو كأنها فجاج عميقة.

وفي وســـط الأرضية العراء الجذبة والتـــي تلامس من جهة الســـور الرمادي للمدينة، وبوابة لمباز، والمنحدرات الأولى للجبل من جهة أخرى يقف المســـجد منزويا... بلا نسق وبلا أناقة في الضوء السحري للقمر، كان يبدو شفيفا تقريبا، غارقا في توهج غامض.

بجوار القرية السوداء، كانت تتردد أصوات الدفوف والشبابة العربيـــة في الأفق... وأمام مقهى ألي فرانك، تجلس امرأة على المقعد الخشـــبي، واضعة مرفقيها على الركبتين وتمسك رأسها بكلتـــا يديها، كانت ترقب المارة، في لامبـــالاة عميقة تقترب إلى الاشمئزاز والتقزز.

في غايـــة الهزال، بوجنتيها ذات الاحمـــرار المكفهر، وعينيها الغائرتـــين، اللامعتـــين بشـــكل غريب، وشـــفتيها المســـترقتين،

المشدودتين في ألم، كانت تبدو كأنها كبرت عشر سنين، البدوية الصغيرة الغضة، فاتنة آثار تيمقاد...

غير أنه، وعلى الرغم من قناع الألم ذاك، الذي كأنه قناع الاحتضار، خاصة بعد الحياة التي عاشتها على مدار ثلاث سنوات، والتي لم تترك منها غير ظل للحزن جد عميق... وعلى الرغم من كل ذلك لم تزل تحتفظ بجمال مستبد وشفيف...

غالبا ما كان صدرها يهتز على وقع سعال حاد ومستمر، ويلون بالأحمر منديلها...

الحزن، الخمرة والعوامل المرضية الضارة، التي كانت تعيش في وسطها أتت على الصحة المتينة للبدوية الصغيرة المتعودة على الهواء النقي للريف.

خمس سنوات مرت على رحيل جاك إلى الجنوب الوهراني، وها هي تقلبات الحياة العسكرية تعيده مرة أخرى إلى مدينة باتنة.

جاءها مع زوجته الشابة، الباريسية الرقيقة الجميلة؛ كانا قد تعارفا وتحابا في الكوت دازير حيث كان جاك في مدينة نيس التي جاءها في عطلة نقاهة بعد مرض أصابه.

تذكر جاك ما تعود على تسميته الآن بالبدوية الحب البريء، حتى أنه كلم زوجته عنها... ولكن كل ذلك كان بعيدا، فهو أصبح يختلف كثيرا عن ذلك الضابط الشاب الذي كان...

كنت آنذاك مراهقا حالما ومتحمسا. آه لو كنت تعرفين يا عزيزتي تلك الأفكار المثيرة للسخرية والتي كنت أحملها! لقد كدت أن أتخلى عن كل شيء من أجل تلك البدوية المتوحشة...

لو كنت استسلمت لذاك الجنون، ترى ما كان سيحدث لي، الله يعلم وحده!

آه! كم يبدو له الآن سخيفا، ذاك الملازم الأول الصغير الصادق المتأجج الذي كان.

لم يفهم كيف كان الشكل الأول لأناه الواعية أفضل وأجمل من الشكل الثاني الذي اقترن بالعقل المعاصر، المغتر، الأناني والناقد الذي اخترقه شيئا فشيئا.

في تلك الحالة، في ذاك المساء وقد خرج مع زوجته التي لم تجد أي سحر في الشوارع الأربعة أو الخمسة المستقيمة للمدينة بادرها جاك قائلا:

تعالي، سأريك جنة الجنود... ولكن لا تتشددي كثيرا، لأن المشهد سيبدو لك أحيانا طبيعيا حد الفجاجة.

في طريقهما، التقيا بأحد أصدقاء جاك، برفقة زوجته أيضا. وراقت لهم فكرة الذهاب إلى القرية السوداء، فانطلقوا، وقد سبقهم جاك محاولا استطلاع الطريق، تاركا زوجته متشبثة بذراع صديقتها.

ولأنه مر من أمام مقهى ألي فرانك، قفزت ياسمينة وصاحت:

- مبروك! مبروك! أنت!

تعرف جاك أيضا على ياسمينة، فهذا الاسم وحده يكفيه لذلك. فاعترت قلبه برودة جليدية شديدة... لم يجد كلمة يرد بها على هذه التي أسعدتها عودته بهذا الشكل الجنوني.

لعن نفسه في السر أن خطرت بباله فكرة إحضار زوجته إلى هذا المكان... لن تترك فضيحة، إلا أتت بها هذه المرأة الضائعة

وسط غياهب الدعارة، حين تعلم أنه لا أمل يرجى منه!

فضل أن ينهي الأمر في حينه، وأن يضع حدا نهائيا لهذه المغامرة السيئة الآن، هو الآن يتقن إتقانا شبه تام هذه اللغة العربية التي تعلم على يديها فيما مضى أبجدياتها الأولى، وقال لها:

أصغي إلي... لا تعتمدي علي منذ الآن. كل شيء انتهى بيننا. أنا متزوج وأحب زوجتي. دعيني ولا تفكري أبدا في رؤيتي من جديد. انسيني، هذا أفضل لنا.

بقيت تنظر إليه... مشدوهة، جاحظة العينين، إذن، ذاك صحيح! وانطفأ آخر أمل يبقيها على صلة بالحياة،

لقد نسيها. تزوج ويحب الرومية، زوجته!... وهي، هي من أحبته حتى النخاع، لم يبق لها إلا أن ترقد في زاوية وتسلم روحها مثل كلب منبوذ.

وتأججت ثورة بروحها الحالكة ضد الظلم الوحشي الذي ما فتئ يضنيها.

وانتفضت فجأة، مجترئة، متوعدة.

لم إذن جئت تبحث عني بعمق الوادي، بدوارنا، أنا كنت أعيش في سلام مع ماعزي وأغنامي؟ لم اتبعتني؟ لم وظفت كل ما عندك من حيلة وسحر لغوايتي، وجرجرتي، وأخذ عذريتي؟ لماذا أعدت معي غدرا الكلمات التي تجعل مسلما ناطقها؟ لماذا كذبت علي ووعدتني بأنك ستعود يوما وتأخذني إلى الأبد؟ آه! إنني مازلت أحتفظ مع تمائمي بالرسالة التي حملها إلي الضابط الشعانبي...! (وأخرجت ظرفا قديما، وقد تمزق واصفر لونه،

ملوحة به كسلاح، كدليل دامغ)... نعم لماذا، أيها الرومي، يا ابن الكلب، تجيء مرة أخرى في هذه الساعة، مع زوجتك الملعونة ثلاثا، لتحتقرني وتهزأ بي تابعا إياي حتى إلى هذا الماخور الذي رميتني به، وتركتني كي أموت فيه ؟

قطع نحيب وسعال أجش كهفي حديثها فرمت في وجه جاك منديلها الدامي.

خذ، أيها الذئب، اشرب دمي! اشرب وكن سعيدا، أيها السفاح!

كان جاك يتألم... خزي وأسف قد انتصبا أمام عينيه لكل هذا البؤس. ولكن ماذا في وسعه أن يفعل الآن؟ لقد اتسعت الهوة الآن أكثر من أي وقت مضى بينه وبين البدوية.

ومن أجل أن يسعدها، وأن يتخلص من المرأة الشقية إلى الأبد في الوقت ذاته، فكر أن قليلا من الذهب يكفي ... فقدم كل نقوده إلى ياسمينة:

خذي، قال... أنت فقيرة ومريضة، يجب أن تعالجي نفسك. خذي هذه النقود القليلة... والوداع.

وتلعثم، فجأة، خجلا مما تجرأ على فعله.

وتطلعت ياسمينة في وجهه للحظات، متسمرة في مكانها، معقودة اللسان، كما في الماضي، هناك، في بوادي تيمقاد الناشف، في ساعة الوداع المؤثرة الحزينة. ثم بغتة وبخشونة أمسكته من معصمه، ولوته ناثرة على الغبار القطع النقدية الصفراء.

كلب! نذل! كافر!

ومضى جاك مطأطئ الرأس، ليلتحق بالمجموعة غير بعيد هناك وراء الأكواخ...

وتهاوت ياسـمينة على مقعدهـا، مهتزة بنحيب متشـنج... أسـرعت سمراء، الزنجية لسماع الضجة، وجمعت بعناية القطع الذهبية. احتضنت سمراء بذراعيها السوداوين عنق صديقتها.

سّمينة، أختـي، روحـي، كفي عن البـكاء... كلهـم هكذا، الروميون، الـكلاب، أولاد الـكلاب... ولكن بهـذه النقود التي أعطاك سنشتري فسـاتين ومجوهرات وأدوية.. فقط لا تقولي شيئا لألي وإلا أخذت منا النقود.

ولكن لا شيء بإمكانه مواساة ياسمينة.

كفكفت دمعهـا، وفي حزن وصمت أخـذت ثانية مكانها في وضعية الانتظار... انتظار من؟ انتظار ماذا؟

لـم تعد ياسـمينة تنتظر شـيئا غير الموت، وقد استسـلمت لقدرها.

مكتـوب، لا مجال للشـكوى والانتحاب. بكل بسـاطة، يجب انتظار النهاية.... كل شيء تهاوى فيها وحولها. لا شيء بمقدوره الآن أن يدغدغ قلبها، أن يسعده أو أن يحزنه.

غيـر أن ألمها كان عميقا... كانت تتألم أكثر لعلمها أن جـاك لم يزل حيا يرزق وأنه قريب منها جدا... قريب وفي الوقت نفسه بعيد... بعيد!...

آه! كم تمنت أن تراه ميتا، راقدا هناك في مقبرة الفرنسيين، خلف باب قسنطينة.

لكان بمقدورها أن تعيش ثانية – لا شعوريا – ساعات الماضي تلك الغامرة بالوجد والسـحر، ساعات النشوة والحب في وادي تيمقاد الناشف.

لكان بمقدورها أن تذوق طعم الفرحة العذبة المهيمنة، عوض الإحساس بهذا العذاب المروع الذي تعيشه الآن...

خاصة لو لم يحب امرأة أخرى، امرأة رومية!

كانت تشـعر بأن هذا الألم الفظيع سيقتلها: حتى الآن، وحده الأمـل المكابر في رؤية جاك، وحدهـا الإرادة العاتية للعيش من أجل رؤيته كانا يعطيانها قوة مزيفة لمقاومة السل الرئوي المدمر، السريع.

لـم تعـد ياسـمينة سـوى مجـرد خـرقة لحـمية، مهجـورة بـلا مقاومة... إلا للمـرض والموت. دفعة واحدة، انكسـر فيها نابض الحياة.

لم تبق ذرة تمرد بروحها شبه المطفأة.

مكتوب، ولا شيء يقف أمام المكتوب.

فـي حوالى السـاعة الحادية عشـرة مر فـارس صبائحي فـي إجازة، وتعجـب أن رآها لم تزل هناك، الظهر مسـنود إلى الجدار،اليدان متدليتان، والرأس متهدل.

هاي سّمينة لماذا تفعلين هنا؟ أصعد؟

ولما لم تجب، قفل الجندي الوسيم راجعا.

حسنا! قال متعجبا. فيم تفكرين بنيتي ... أم أنك سكرانة؟

أمسكها من يدها وانحنى عليها...

وفي الحال، اعتدل المسلم ووجهه شاحب قليلا.

لاحول ولا قوة إلا بالله! قال

رحلت ياسمينة البدوية.

النقيب

كل شـــيء كان بالنسبة إليه كشفا وتجليا في هذه الجزائر... باعــث اضطــراب -قلق تقريبا - الســماء في غايـــة الصفاء، الشـــمس في غاية التألق، الهواء - حيث يشـــبه نفســـا من كآبة حالمة - يبعث على التراخي واللذة البطيئة، وقار المجتمع المسربل بالأبيض الذي يمنعك من ولوج الروح، النبات شـــديد الخضرة، المبايـــن للأرض الرماديـــة أو المحمرة، المحجـــرة، ذات الجفاف الكئيب، والجدب الواضح... ثم شـــيء آخر يتعذر تحديده، لكنه مكـــدر ومثير، من حيث لا يدري، كل هذا شـــوش صفو أعماقه، وبجس فيها ينابيع إحساس لم تخطر له ببال قط.

بمجيئه هنـــا، بدافع الواجب، وبما أنـــه درس هذا الطب الذي يفتـــرض أن يعول أمه الضريرة، وأختيه الصغيرتين، وأخيه الصغير الهزيل، كما قضى حياته وكما اعتقد حتى الآن، لقد خضع للحاجة ببساطة، دون انجذاب ودون افتتان بهذا البلد الذي يجهل.

غير أنه ومنذ تعيينه، لم يرغب في أن يقرأ شـــيئا من دون أن يعرف عن هذا البلد حيث اســـتوجب عليـــه نقل حياته الصامتة والهادئة، وحلمه الحزين المحدود، دون محاولة للتعبير، أبدا.

ربما سيرى، مستقلا، وحده، دون الخضوع لأي تأثير كان.

مـــن المفروض أن ينصت إلى تحذيـــرات رفقائه الجدد الذين احتفوا به وحزر أنهم متهكمون، حماة، مستخفون بشبابه الغض، مهتمون خاصة بتأثيرهم وبإدهاشـــه... غير مكترث استمع إلى شـــكاواهم وانتقاداتهم: لا مجتمـــع، لا عمل، ضجـــر كئيـــب. بلـــد

بلا سحر، الجزائريون خشنو الطبع، مشغولو البال بالكسب فقط، والأهالي مثيرون للاشمئزاز، مزيفون، متوحشون، أدنى من أي انتقاد، مسخرة...

كل هذا لم يكن يثيره، ولم يخرج منه إلا بمعارف حول هؤلاء الرفقاء أنفسهم والذين سيعيش بينهم...

ثم وفي أحد الأيام، فجأة، - وهو ابن جبال الألب المشجرة والمخضوضرة، والآفاق المحدودة والجلية -يتوغل في السهل الكبير، المبهم والمتشابه على مد البصر، بلا مستويات أولى، تقريبا بلا شيء يستوقف النظر.

شعر في البدء بانزعاج، وحرج. كان يحس كأن كل ذلك المدى غير المتناهي، كل اللامحدود المستغلق من ذلك الأفق ينفذ إلى أعماقه ويتغلغل بداخله، يضني روحه، هي الأخرى كأنه يسربلها بغشاوة من ضباب وحزن غامض يتعذر وصفه. ثم يحس فجأة، مدى اتساع حلمه وامتداده، وهو يؤول إلى هدوء عارم، كما الصمت المطوق. واكتشف روعة هذا البلد، النور المنتصر بلا منازع، غامرا السهل والأرض المجذومة بالحياة، مبيدا الرتابة في كل لحظة... كان النور، روح هذه الأرض الحارة الشرسة فاتنا. وكاد يعشقه، لأنه بدا له واعيا، مستيقظا في ذلك التنوع المدهش الذي غمر عينيه.

عرف الخفة البهيجة، اللامبالاة الهادئة في العسجد والليلك الشفيف للصباحات... والتوتر، سحر ساعات الظهيرة الساطعة الأخاذ والثقيل إلى حد الشجن، حيث تبدو الأرض كأنها تتأوه تحت وقع لفح النور الملتهب... وحزن المساءات الذهبية والقرمزية

العجيب، العذب كالزهد النهائي، وهي تهيأ للأسرار المتوعدة لليالي المظلمة الطافحة بالمجهول، أو المضيئة مثل فجر غامض، مغرقا الأشياء في ضباب أزرق.

وأحب السهل.

تلال لا لون لها، متراكمة، متراصة، متموجة، مغيرة صبغتها في كل آن، خاضعة لكل تغيرات الضوء، لكن جامدة كأنها نائمة، تغط في حلم سرمدي، محاصرة القصر عديم الألوان، والذي تواصل قبابه الصغيرة العديدة ازدباءها الجم.

شوارع صغيرة متعرجة، محاطة بمنازل قديمة من الجص، مفصولة بخراب وتهدم، مع ظل نحيف، أحيانا لنخلة تعلو على الأشياء، ممتثلة هي الأخرى لسلطان الضوء، أماكن صغيرة، مؤدية إلى دروب صامتة، تنفتح فجأة، مخيبة للأمل على الرحابة الملتهبة للصحراء... برج أبيض تماما، منعزل في الرمال، حيث يمكن من شرفته مشاهدة التموج اللامتناهي للكثبان، وقد بدا في تجاويفها العميقة مخمل النخيل الأسود... هنا وهناك ركائز آبار بدائية، عارضة كبيرة متجهة صوب السماء، وقد انحنت بواسطة حبل كأنها صنارة صياد عملاقة. وهناك، مهيمن على الكل في قمة الهضبة برج مربع ذو بياض ناصع يطوق الشفافية المحيطة بالمكان. يتلألأ وسط النهار الساطع، محتفظ في المساء بآخر الأشعة الحمراء للغروب: إنه منارة زاوية سيدي سالم.

في الضواحي المحجوبة بالكثبان، قرى معزولة، حزينة وقديمة، والتي كانت أسماؤها ذات وقع موسيقي غريب: البياضة، فم السحوم، أولاد علاندة، بير عراير...

كان الإحساس الأول الموجع حد الشجن لجاك هو إحساسه بالسجن بين كل هذا الرمل، جراء عزلته الكلية والتي قضاها على مدار ثمانية أيام، والتي اعتقد أنه أدرك فحواها، وقد بدأ يتعلق بها...

كل هذا الفضاء الذي يفصله عن بسكرة، حيث ترك آخر المناظر المعروفة، والمألوفة إلى حد ما لديه. كان يبدو له كل ذلك ساحرا، مستبدا، عدائيا إلى حد اليأس تقريبا...

نقيب، ضابطان برتبة ملازم أول مكلفان بشؤون الأهالي، ضابط من القناصين، وضابط صف من الفرسان الصبائحيين، شيخ عربي، مومياء بالية في ثياب، هؤلاء هم رفقاؤه الجدد... بمجرد وصوله بينهم، اعترت قلبه برودة شديدة. كانوا لطفاء، متبرمين وبعيدين عنه، بعيدين جدا... ووجد نفسه وحيدا على نحو مثير للرثاء، في خضم كآبة هذا البلد الذي أصبح يخيفه الآن. صامتا، مذعنا دوما في علاقته مع الرجال، من الانطباع الأول الغريزي الذي يحسه صادقا، وانطوى على نفسه. واعتبروه عبوسا وتافها، الأشقر الباهت ذا العينين الزرقاوين، صاحب النظرات التي تبدو كأنها تتجه إلى الداخل.

وما أتى على التفريق بينهم، هو إحساسه للوهلة الأولى، بلطافتهم بسبب عقلانيته المتطورة، إلى جانب تربيته المتأنقة والدقيقة.

درس بعناية اللغة الأجش والرخيمة، والتي أحب نبرتها منذ الوهلة الأولى، وأدرك انسجامها مع آفاق النار والأرض المتحجرة...

هكذا كان يحدث رجاله الذين ينهضون عند مروره، مستكينين لتحيته، عيونهم في الأرض، وقلوبهم موصدة في قسوة ونفور.

يجب على الأهالي، أيا كانوا، تحية كل ضابط، قال النقيب مالي، صلدا ومتأثرا بمهنة الصلابة مثل أو أكثر من رزقي التركي.

عليك ألا تقرب هؤلاء الأقوام منك أبدا، وأن تلزمهم حدودهم. الصرامة، بلا تخاذل... الوسيلة الوحيدة لإخضاعهم.

قاسيا، باردا، مذعنا بصورة عمياء، لأوامر مرؤوسيه، بلا أي سلوك عفوي دوما، سواء كان سلوكا طيبا أو قاسيا، كان النقيب مالي موضوعيا على الدوام. منذ خمس عشرة سنة وهو يعيش بين الأهالي، متجاهلين إياه، متجاهلا إياهم، دولاب محكم في آلة الهيمنة الكبيرة، كان يلزم معاونيه بالموضوعية نفسها، وبالبرودة الجليدية نفسها...

ثار جاك منذ الأيام الأولى، راغبا في أن يكون نفسه، وأن يتصرف حسب ضميره، الذي أدى به بسبب تدقيقه الوسواسي إلى عثرات، خيبات أمل، وحيرة مستمرة.

رفع النقيب كتفيه.

انظر، قال لمساعده، مصدر آخر للغم. الآخر (سابقه) يسكر ويسخر منا... وهذا جاء ليدخل تجديدات، ليغير كل شيء، ليطلق الأحكام وينتقد... أراهن أنه مشرب بأفكار إنسانية، اجتماعية، وغيرها... من النوع نفسه. لحسن الحظ أنه ليس إلا طبيبا وليس له أن يتدخل في الإدارة... ولكن هذا مزعج رغم ذلك... في النهاية، الآخر أفضل منه... أقل إزعاجا. لم يبق إلا أن يرسلوا لنا الصبيان! على الأقل لو كانوا جزائريين...

ومنذ ذاك لم يتوان النقيب في إظهار استنكاره المطلق للطبيب، صراحة، وبكل برودة.

أحزن ذلك جاك.

لو لم يخضع البتة لحكم الرجال، فسيتألم أكثر من حقدهم، وإلا من احتقارهم.

أكثر فأكثر، كان أكثر ما يشمئز منه في علاقته بالرجال، فظاظتهم واهتمامهم بأن يكونوا، يفكروا أو يتصرفوا ككل الناس، أن يحاكوا الآخرين، وفرض طريقة تفكيرهم، الموضوعية الضيقة على الكل.

كانت تدهشه على نحو بغيض، هذه اليد الموضوعة على حرية الآخر، وهذا التدخل في أفكاره وتصرفاته... غير سعيدين بكونهم منعدمين هم أنفسهم، كانوا يريدون إلغاء شخصيته، تقنين أفكاره، وتعطيل استقلالية أفعاله...

ورويدا رويدا، بدا يصاعد من دعة طبعه الأولى الخجولة بعض الشيء والتواقة للرقة، غضب أخرس، غل وتمرد. لماذا يقبل هو باختلاف الإنسان، لماذا يريد المناداة بالانبثاق الحر والخصب للفردانيات، وتعزيز تطورها التام، لماذا لا يملك أي رغبة في تشكيل الطبائع على صورته، وسجن الطاقات في الدروب التي يحلو له سلكها، ولماذا هذا التعصب، وهذا التحيز المستبد للرداءة؟

وبسرعة تكونت ثقافة عقله وطبعه في هذا المحيط الضيق جدا، حيث يشاهد كما في صورة مصغرة كل الفظاعات، التي فلتت منه في مواضع أخرى، وسط الزحام الأبقع المتحرك.

غيـــر أن الاضطراب الكبير الذي أحدثه في روحه بلا مرحلة انتقال اكتشـــاف هذا البلد المختلف عن بلده، بدأ يهدأ تدريجيا، ولكن بشـــكل ملموس، وحيث كان يحس بكدر شديد ومؤلم، وبدا يكتشف كنوزا من السلم الجليل ومن الحنين الخصب.

فـــي البدء لم يكن يريد أن يزور البلد الذي مكث فيه منعزلا على مدار ثمانية أشهر على الأقل، من طبع السائح لم يكن لديه لا الفضـــول ولا العجلة .كان يفضل أن يكتشـــف التفاصيل في هدوء، تدريجيا، وحســـب مصادفات الحياة والجولات اليومية، عن غيـــر قصد ولا هـــدف، ثم وبعـــد التراكمـــات التدريجية للانطباعات، بدأت بذهنه تتشـــكل الرؤية المجملة، وتتكشـــف وحدها تلقائيا.

وهكذا نظم حياته كي يتألم أقل ويفكر أكثر...

في اليوم التالي لوصوله، قصد المكتب العربي صباحا، لزيارة مرضى مدنيين من الأهالي، مصطحبا معه شـــابا من القناصة، ذا جمال أنثوي، وعيون سحيقة ظليلة وذابلة كترجمان. وممرضا برتبة عريف، ذا وجه أحمر مبتهج، ساخرا قليلا لمساعدته.

في الســـاحة الضيقة والطويلة، كان حوالى عشرين نفرا من الأهالـــي ينتظرون، جالســـين القرفصاء فـــي وضعيات صبورة، متأنية.

وعندما ظهر جاك، وقـف المرضـــــى، بعضـهم بعـناء، وحيوّه بلا خبرة تحية عسكرية.

النساء، خمس أو ســـت، رفعن أيديهن المفتوحة بفظاظة فوق رؤوسهن المنحنية، وكأنهن يلتمسن الصفح.

لاحظ بوضوح الخوف والحذر تقريبا في عيون أولئك الناس.

مجموعة الرجال يرتدون برانس باهتة، وجوههم سمراء، ذات سمات شديدة، وعيون متقدة محمية بستائر وسخة وممزقة...

أمـا وجوه النسـاء فكانت أكثر اسـمرارا، متغضنة، العجائز درداء، ببنـاء ثقيل من ضفائر شـعر أبيـض محمر بالحناء، من ضفائـر الصوف الأحمر، والأطواق والمناديل... أما الفتيات فقد كانت وجوههن مغرية وموصدة، ذات سـمات قوية نسـبيا ولكن نقية ومتجانسـة، في سحنة داكنة، كانت عيونهن كبيرة مندهشة ووجلـة... الكل ملفوف في ملحفة زرقاء داكنة، سـوداء تقريبا، مثنية على الطراز القديم.

بانتبـاه، مصححا بعذوبة نظراته، وبسـاطة أسـلوبه الودود والمطمئن، الخشونة التي يعطيها الترجمان الشاب لاستفهاماته، كان جاك يفحص مرضاه، مشـفقا أمام كل ذلك البؤس، كل تلك المعانـاة التي ينبغي عليه تخفيفها، كانت الزيارة طويلة... لاحظ التعجب التهكمي للعريف، وعدم اكتراث الشاب الترجمان.

غير أنه، وعلى الرغم من ذلك الوضع وهذا التصرف الجديد بالنسبة إليهم من طرف الطبيب، لم ينفتح الأهالي ولم يشرحوا له صدورهم، قرون من الحذر والشك والعبودية تقف بينهم.

وفي طريـق مغادرته، أحس جاك بأن المهمـة التي ارتضاها لنفسه جسيمة، ومرهقة... لكن لم يستسلم لليأس: لو تتراخى كل الأيدي أمام المهام المناطة بها، لو لا أحد يعطي القدوة فسينتصر الشـر دوما مستعصيا. ثم إن جاك يؤمن بالقوة الحية للحقيقة، وبفضيلة العمل المخلصة للبشر.

في الحي، في المستشفى كان يقابل الوجوه المنغلقة والقاسية نفسها، والتي تشبه وصفته الطبية والخارجة عن الإنسانية. أذهله الفقر المدقع في حياتهم: الخدمة الميكانيكية، مجموعة من الحركات والإشارات، هي نفسها تتكرر على الدوام من دون تغيير، بسبب الخوف أولا، ثم بسبب التعود ثانيا. وعدا هذا لم يتركوا لهم من الحياة الحقيقية، الشخصية غير شيئين: اختبال الكحول والمتعة الآنية، وبأثمان زهيدة في الدار العمومية، هناك في ذلك النطاق الضيق، كانت تنقضي سنوات حياتهم النشطة...

... ثماني مومسات، باليات، ذاويات، يجلسن على المقاعد الحجرية، أمام شبه حانة... ملابس ذات ألوان فاتحة، ممزقة، تعلوها بقع، متسخة، لكنها معطرة للغاية. أجساد مترهلة نديبة، منخورة من شدة ما عجنت بأياد عنيفة فوق تخوت الصوف الوسخة، ومن أجل بعض الفلسات عناق منهك في غالب الأحيان، يؤتى من أجل الحاجة، بلا أي صدى يذكر، زجاجات من سوائل قوية، تزود بحرارة مستعارة، متعة مزيفة لم يجدوها في أعماقهم، هكذا كان ركن الحياة الشخصية الذي يلجأ إليه أولئك الرجال الذين من أجل أمن الخبز والفراش، يبيعون حريتهم، آخر الحريات الإنسانية: أن نذهب أينما نريد، واختيار الهاوية حيث نتكبد عذاب الجوع، ونهش البرد...

واعتقد جاك، في سذاجة أنه يشاركهم وجدانيا معاناتهم، ناسبا لهم الأحاسيس التي تمده بها حياتهم... واعتقد أن احتجاجهم المستمر ضد أقدارهم، إنما هو نتيجة لوضعيتهم

المزرية... ثم بعدها أصيب باندهاش واضطراب لاكتشـــافه أنهم لا يعانون بسبب عيشهم على تلك الصورة...

«تبا لهذه المهنة»

«اللعنة على هذه الحياة ثلاثا»! يقولون...

«ثمة أيام عديدة أخرى لم تزل»... كانوا يعدون أيام معاناتهم... ثم وبعد اســترجاع حريتهــم بعد انتهاء «عطلتهــم»، ينخرطون، يتجنــدون ثانية، بلا تردد... فإذا صادف أن اســتمروا إلى غاية الســتة أشهر، منزعجين، تائهين وســط معمعة الحياة، يعودون، واضعين رقابهم المذعنة تحــت النير... كان جاك يرثى لحالتهم تلك، ويشفق عليهم من عدم تألمهم من انحطاطهم واستعبادهم.

كان جــاك قد حلم بالدور التمديني لفرنســا، كان يعتقد أنه ســيجد فــي القصر رجالا واعــين بمهمتهم، مهتمين بتحســين أوضاع من يتولون كلية إدارتهم... غير أنه وعلى العكس اكتشف بسرعة أن هدف النظام الساري المفعول هو الحفاظ على الوضع الراهن.

عــدم إثارة أي تفكير عند الأهالــي، عدم إيحائه بأي رغبة، بــأي أمل، خاصة في مصير أفضــل. ليس فقط أننا لا نحاول تقريبهم منــا، ولكن بالعكس نبعدهم ونبقــي عليهم في الظل، هناك في الدرك الأســفل... أن نبقى حراسا لهم، لا أن نصبح مثقفين لهم.

أو ليــس طبيعيا؟ إذ إن هؤلاء القوم، في وســطهم الطبيعي بالثكنة، لا يبحثون عن النظر إليهم قليلا، وتقريب هذه الطبقة الدنيــا، هــذه الجمهرة المبنيــة للمجهول إلى نموذج إنســاني،

حيــث إنهم تعودوا أن يكونوا هناك لــردع أي مظهر للتحرر... أي تجديــد، فكيــف لا يصفــون حظهم بالحســن، وهو يخدم مصالحهم وطموحاتهم على الســواء فــي حكم مدنيين، غرباء مرتين عن حياتهم، كمدنيين أولا، وكأهالي ثانيا، كيف لا يكونون أوفياء لمعيار الواجب العســكري: دك الفردانيات، تحويلها إلى انقيــاد مطلق، تعطيــل أي تطور يمكنه بالتأكيــد أن يؤدي إلى رضوخ أقل؟

واقتنع أخيرا مستنتجا: لا ليست مهنتهم هي حكم المدنيين... لا، لــن يكونــوا مربين أبدا... كل واحد منهــم، بعد رحيله يترك الأشــياء على الحالة التي وجدها عليها عنــد مجيئه، بلا أدنى تحسين، بدفع الأشياء إلى الأفضل.

إنه سلطان الجمود، وهذه المناطق مفصولة عن العالم الآخر، عن فرنســا الحية والمهتزة، وحتى عن الجزائر الحقيقية نفسها، بسور عظيم كسور الصين، يتعهدونه بالحماية ويعملون على رفعه أكثر فأكثر، ومحو إمكانيــة النفوذ منه إلى الأبد، منطقة النفوذ العسكري المنغلقة على ما عداها.

واعتــراه حزن كبير حين تذكر هذه المهمة التي كان من الممكن أن تكون خصبة وتبددت.

وما زاد من مرارة استيائه هو عجزه الشخصي في تحسين أي شيء من حالة الأشــياء تلك، والتي كان من خلالها يرى بوضوح الخطر الاجتماعي والوطني.

وهو يشــغل وضعا لا شأن له بالتسلسل الهرمي الذي يسيطر على كل شيء، وهو قاعدة كل شيء، وقد وضع إلى جانب المكتب

العربي ذي القدرة المطلقة، بلا أي سلطة، توجب عليه البقاء في دوره كمتفرج خامل.

فـــي البداية، كان يحاول أن يتكلم، فـــي ثرثرة، لكنه اصطدم بجبل راسخ، أمـام الاعتـقاد الصـادق والعنـيد لأولـئك النـاس، ما جعله يصمت أمام تهكمهم.

«أنت شـــاب، يا حكيم، وتجهل كل شـــيء عن هذا البلد، وعن الأهالي... حين تعرفهم ستكون مثلنا»

نطق النقيب مالي كلماته تلك في تســامح متعجرف وتهكمي جمدت جاك.

منذ أن بــدأ يفهم اللغة العربية، ويحســـن التعبير بها قليلا، أصبح يحـــب أن يتمدد فــوق حصيرة، أمام المقاهـــي المغاربية، ويصغي إلى أولئك الناس، ويســـتمع إلى أغانيهم الحرة المنطلقة التي تشـــبه صحراءهم وتشبهه، كانت خطاباتهم بسيطة وحزينة يتعذر سبرها.

وشيئا فشـــيئا بدا السوفيون يتعودون على هذا الرومي، على هذا الضابط الذي لم يكن قاســـيا، أو متغطرسا، والذي يحدثهم وبســـمة صادقة جدا تعلو محياه، والذي يجلس بينهم، وبإشـــارة يوقفهم حين يريدون الوقوف لتحيته، عندما يقبل...

لم هو هكذا؟

لم يكونوا يدرون ولا يفهمون.

لكنهم وجدوا فيه العون على كل معاناتهم، مجاهدا في صبر، خطوة، خطوة، حذرهم، عدم ثقتهم، وجهلهم.

كان المرضى يتهافتون

على المكتــب العربي، مطمئنين جراء شــهرة طيبة الطبيب، وكانوا يبادرونه بالحديث خلال تنزهاته، يشوشــون أحلامه على حصائر المقاهي...

وبــدل أن يفرغ صبره، ســجل ما في ذلــك من تقدم ملحوظ وأثلج صــدره. لم تعد صعوبة وظيفته تــدرأه مطلقا، ولا نكران جميل الكثير.

كانت ساعات المساء، عند الغروب، هي ساعات راحتة اللذيذة، وحلمه الكئيب الهادئ.

يذهــب إلى مقهى مغاربــي، مقابل للمكتــب العربي تقريبا، وهناك، مستلقيا كان يتأمل روعة السحر المتجدد يوميا، والمختلف دوما عن الساعة القرمزية.

أمامــه، كانــت بنايات البــرج اللبنية تتلون فــي البدء باللون الوردي، ثم شيئا فشيئا تصبح حمراء تماما، بلون الجمر، بشكل خارق وباهر...

كانت كل الخطوط المســتقيمة أو المنحنية التي تستجنب على أرجوان السماء، كأنها تخرج من الذهب... خلف القباب الملتهبة للمدينة، الكثبان الكبيرة تتأجج... ثم يخفت الكل تدريجيا، يعود إلى لونه الوردي المتقزح... تنزلق ســحابة باهتة ذات لون أصفر فضي على نتوءات البنايات، وعلى قمم الكثبان.

تعزيــزات عميقة للون الأســود، أروقة ضيقة بــين الكثبان، تزحف ظلال الليل البنفســجية، تتســلق باتجــاه القمم الملتهبة، تطفئ الحريق... ثم يغرق كل شــيء في نور خفيف أزرق بحري عميق.

عندهـــا ومن على منارة ســيدي ســالم الكبــرى، ومن على الشرفات الصغيرة للمساجد الأخرى المتلفة، يرتفع صوت المؤذن، الأبح والآبد قبلا، والجاذب.

ومع هذا الصوت الحالم يتوقف آخر ضجيج إنساني للمدينة، التي بلا بلاط، وبلا ســيارات، ومع كل مســاء ينطلق هناك، في الشــوارع الطللية للمصاعبة، بغرب الوادي، ناي بدوي هامســا حزنا سرمديا، قطعيا.

كان جاك يحلم.

هو الآن يحب هذا البلد. تكفيه مهمته اليومية لســد حاجته الملحــة للحركة... وكل ذلك الحزن الكبيــر، وكل ذلك الغموض، الذي لهذا البلد سحره، يكفيه لسد حاجته للحلم...

بقي جاك عفيفا، لنزوعه إلــى جمالية أخلاقية ما، ولخجله أيضا، ولكن هنا، أكثر بكثير من هناك بفرنســا، في خضم ذبول هــذه الحيــاة الرتيبة، وفي خضــم عزلته الروحيــة، كان يحس بالاضطراب العنيف للأحاسيس المتلهفة الشرهة.

لــم يكن يتوقــع هذا... أولا لأن الرغبة التــي كانت تهيج فيه حدة كل الأحاسيس، كانت لذيذة مع كونها غير مشبعة. كان يبقي روحه منفتحة على كل الملذات، كل الارتعاشات.

لكــن، عما قريب تنفلــت أعصابه المتهيجة أمــام هذا التوتر الشــاذ والمرهق، أحس جاك بانزعاج مجهول الســبب، واعترته ثورة أعصاب يتعذر وصفها، معكرة عليه صفو طمأنينته.

اغتاظ من نفســه، قاوم ذلك التهيج الــذي لم يخف طبيعته المادية جلها.

ثم وفي أحد المساءات، كان يتسكع في هدوء وبلا هدف في شوارع الأشاد الضيقة في شمال الوادى حيث كانت كل المنازل متهدمة وتبدو كأنها غير آهلة. كان يحب ذاك المكان المنعزل المغمور بالصمت والهجران. مات السكان ولم يتركوا وريثا، أو رحلوا إلى الصحراء، إلى غدامس أو بر الصوف أو أبعد من ذلك...

خيم الليل وجاك لم يزل جالسا على صخرة ويحلم.

فجأة، أبصر في أحد تلك الأطلال نورا خافتا... وارتفع صوت ذو نغم، مصحوبا بصلصلة أسورة... صوت امرأة كانت بهدوء تغني... وبدا له ذلك تعويذة سحرية، بسبب ما كان يطفح به إيقاع تلك الأغنية من حزن غامض غريب...

كان ريح سوف السرمدي يتمتم على الأنقاض، وفي هبوبه الفاتر اندست رائحة صمغ جاوة.

توقف الغناء وظهرت امرأة بمدخل منزل أقل قدما من المنازل الأخرى. طويلة القامة، نحيفة تحت ملحفتها السوداء، واستندت رشيقة على الجدار.

ورآها جاك، في الضوء الباهت الضارب للبنفسجي في غير وضوح.

ذابلة قليلا، كما لو أنها مرهقة، كانت جميلة جدا.

رأته فارتعدت. لكنها لم تدخل الدار... وتبادلا النظرات طويلا، وشعر جاك باضطراب لا يوصف يجتاح كيانه.

– أرواح!... قالت بصوت منخفض

وتقدم، من دون تردد.

أمســكته من يده وقادته في ظلمة الأطلال إلى النور الضئيل المعلق على محجن حديدي مرشــوق على الجدار؛ مصباح صغير قديم الشكل كان يشتعل مترنحا: نوع من مجمرة حديدية صغيرة مربعة حيث تسبح في الزيت فتيلة غليظة. وفي الساحة الداخلية تنفتح غرفتان مازالتا صالحتين للســكن. في إحدى الزوايا، قدر يغلي على نــار من جمر. قط كبير أســود، ملتف ككرة بصرود، يحلم في ضوء النار الأحمر، محدثا هرير نشوة منخفضا.

أجلســت المرأة جاك في مدخل الغرفــة وبقيت واقفة أمامه، صامتة. أخذ جــاك يديها، كانت يداه ترتعشـــان، وأحس بدوار لذيــذ. تتصاعد إلى حنجرتــه من صدره ضيــق النفس حرارة سائغة، خانقة تقريبا... لم يحس مطلقا بسكر شهوة حسية حادة على هــذه الدرجة من قبل وكان يتمنى أن يســتمر هذا العذاب اللذيذ إلى الأبد.

لكنه ومن دون أن يدري بادرها متلعثما:

لكن... من أنت؟ وكيف أنت هنا؟

كانت تدعى مباركة. زوجها فلاح فقير من قبيلة العشاشــين، توفــي... وهــي يتيمة، ليس لهــا إلا أخ يعمل ســقاء بمدن التل الكبرى، ولم تكن تدري أين تذهب بالضبط. وبقيت وحيدة، وهذا يعني أن تستســلم للقناصين والفرســان المنخرطين في الجيش الفرنســي، كانت قد خرجت وشربت معهم الخمر. ولما لم يرغب أحــد فيها كزوجة، لجأت إلى هنا، في منزل أخيها وعاشــت مع عمتها العمياء. ولكســب قوت يومهما كانت تبيع جسدها. والآن تخشــى من المكتب العربي... أن تخـضع له، الطبيب، وترجـته

ألا يدخلها على الدار العمومية، وأن يحفظ سرها. طمأنها جاك.

مباركة لا تتكلم كثيرا .كان سرد حكايتها بسيطا ومقتضبا... كانت تبدو متوترة.

تركت جاك وذهبت لسد المدخل بالألواح والأحجار: أحيانا يأتي الجنود ليلا...

ثم عادت وحملت المصباح الصغير إلى الغرفة الفارغة والعارية، على الطاولة، حصيرة وبعض الخرقات هي كل الأثاث. هنا وبغتة، السعادة، تقريبا تلك التي حلم بها... وبدت له الحياة بسيطة جدا ولذيذة جدا.

كانت مباركة تظل صامتة، في خضوع مطلق، ومع ذلك لم تنفتح. وكان ذلك الظل الغامض الذي تطوق به نفسها لاشعوريا، والذي لا يقلق جاك البتة، يفتنه. عندما كانت تحس بأنه يحلم، تلتزم الصمت، جالسة القرفصاء في الفناء الصغير أو متفرغة لأشغال المنزل. أو تغني، وكان صوتها الوئيد، العذب والأغن قليلا يشبه إيقاع حلمه.

كان يأتي إلى هنا كل مساء، هاربا من مطعم الضباط الممل، لقد أصبح مسكن هذه المومس العربية منزله. هل كانت وفية له؟ إنه لا يشك في ذلك أبدا.

لقد رضيت، منذ اليوم الأول، بنهج الحياة الجديد هذا، من دون أي اندهاش، ومن دون أي تردد. لا ينقصها أي شيء. والجنود السكارى، ما عادوا يجيئون مساء لشراء حبها، وحق ضربها وتعذيبها مقابل بعض الفلسات. لقد كانت مباركة سعيدة.

لاحظ جاك تطـورا كبـيرا في الحـي، وفي المكتـب العـربي. لا حــذر مكفهرا فــي النظــرات، لا خوف ممزوجــا بالضغينة الهمجية. واعتقد صادقا أنه كسب هؤلاء الرجال.

صحيح أن هنالك بعض التقصير لديهم تجاهه، لقد أصبحوا أقــل اندفاعا في خدمته، أقل إذعانا، عاصين في غالب الأحيان لأوامره، معترفين بذلك بلا خوف، ذلك أنه لم يرد استعمال حق العقاب.

كان جاك مســتبصرا إلى حد بعيد كــي لا يدرك ذلك. ولكن أوليــس ذلك أمــرا طبيعيــا؟ إذا كان هؤلاء الرجــال خاضعين لرفقائه حد الرضوخ والتخلي التام عن كل إرادة إنســانية، فإنه الخــوف الذي يجبرهم على ذلك. لقد كانوا يســارعون لخدمته أكثــر من طاعتــه... ولكن يفعلــون ذلك بالإكراه أيضــا. بينما حيالــه، حتى خدمــات الرزقي، على الرغم مــن عناده وتجمده فإنها تبدو كمبادرات ومجاملات. حتى في نضاله المستمر الذي تعــين عليه اتباعه ضد إرادة الأهالي الســلبية، فــي عدم اتباع وصفاته الطبية، وخاصة في عدم تحســين صحتهم، انتزع بعض الانتصارات. وحظــي بصداقة الأكثر ذكاء بينهــم، رجال الدين والمعلمــين. باحترامه لإيمانهم، وبرغبتــه المتجلية في معرفتهم، وإدراك طريقة تفكيرهم ورؤيتهم للأشياء. لقد ظفر بودهم الذي فتح له قلوبا أخرى كثيرة، أكثر بساطة وأكثر غموضا.

لــمَ الحكم بالرعب؟ لم زرع الخوف الذي لا يعدو أن يكون إلا شــكلا من أشــكال البغض والرعب. لم التقييد المطلق بالطاعة العمياء، لم السلبية؟

كان جاك يطرح على نفسه هذه الأسئلة وبصدق، يثير كل ذلك النظام تمرده. لم يكن يريد تبنيه.

وفي أحد الأيام، دعا النقيب الطبيب إلى مكتبه.

أصغ إلي عزيزي الطبيب! إنك فتى يانع، وحديث عهد بالمهنة... وتحتاج إلى النصح... وإذن! يؤسفني جدا أن أقولها لك، ولكنك لم تزل بعد لا تعرف إلى أين تتجه هنا. إنك متسامح حد الإفراط مع الرجال... تفهم، كقائد حرب يجب علي السهر على حفظ النظام...

«لكن على الرغم من أنها أقل خطورة من وضعك إزاء الأهالي المدنيين، فإنك تلقائي وعشير فوق اللزوم معهم؛ ولا تملك الهم الدائم واللازم لترسيخ تفوقك، وسلطتك عليهم. صدقني، إنهم كلهم سواء، ويحتاجون إلى أن يقادوا بيد حديدية. ومعاملتك يمكن ان تكون لها في المستقبل عواقب وخيمة جدا... إنها يمكن أن تزرع البلبلة في عقولهم المتوحشة والمتعصبة. تصدق إعلان وفائهم، لصداقة زعمائهم الدينيين المزعومة... ولكن هذا ليس إلا مجرد احتيال ومراءاة... احترس... احترس! إني أقول لك هذا أولا من أجل مصلحتك. بعدها تعين علي التحسب لنتائج معاملتك... تفهم لي هنا كل المسؤولية»!

مجروحا في العمق، متبرما أكثر، اعترت جاك موجة من غضب وراح يشرح للنقيب - منذهلا في البدء، مغتما بعدها - أفكاره، وما نجم عن ملاحظاته.

قطب النقيب حاجبيه:

حكيم، بهذه الأفكار، يستحيل عليك أداء خدمتك هنا. دعهم من فضلك. كل هذا، كلام كتب الأدب، الأدب الخالص. هنا بمثل هذه الأفكار، لن نستطيع إلا أن نثير عصيانا مسلحا في أقرب وقت!

وأمام عدم الفهم المحزن ذاك، أحس جاك - وقد لف جوانحه حنق - باليأس.

احمل ما بدا لك من أفكار، يا حكيم، ولكن من فضلك، لا تضع مثل هذه المعتقدات حيز التطبيق هنا. لن أسمح بذلك، وفوق هذا، نحن قلة من الفرنسيين ومن المفروض بدلا من أن نحدث هذه الانشقاقات بيننا، يجب أن نتفاهم...

نعم، من أجل عمل مجد إنساني وفرنسي!

صاح جاك.

في غطرسة وتعال رد النقيب:

نحن هنا من أجل الحفاظ على العلم الفرنسي عاليا وراسخا. وأعتقد أننا نقوم بأمانة وشرف، بواجب الجنود والوطنيين هذا... ولا يمكن أن نقوم بذلك بشكل آخر، من دون أن نفشل في أداء واجبنا. إننا جنود، جنود فقط. على كل حال، أنا قد حذرتك...

غادر جاك النقيب، وقد تعكر سكونه البهيج، متبرما، منزعجا. وافترقا ببرودة.

ولكن جاك كان قوي السريرة، لم يغير شيئا في موقفه.

ويوما بعد يوم، كان يحس بتفاقم عدائية رفقائه، بقيت معاملاته معهم كيسة، لكنهم يتقيدون بالحد الأدنى الأساس. كان تضايق.

وانطوى جاك أكثر على نفسه، وغدا المنزل الطللي الصغير ملجأ له. هناك، يستريح، وسط ذلك الديكور الذي يحبه؛ هنا كان بعيدا عن كل الذين بالبرج الذين ينغصون عليه حياته. لم تكن مباركة تسأله عن بواعث حزنه، لكنها جالسة عند قدميه، كانت تدندن الأغاني الحزينة المفضلة لديه، أو تبتسم له...

هل تحبه؟ لم يستطع جاك أن يحدد ذلك بالضبط. لكنه لم يكن يتألم من ذلك الشك، لأنه أكثر ما يسحره وما يجذبه إليها هو ذلك الغموض الذي يلف كل كيانها، كانت بالنسبة إليه تجسيدا لبلدها وعرقها، بحزنها، وصمتها، وعدم قدرتها المطلقة على الفرح والضحك... ذلك أن مباركة لا تضحك أبدا.

في بسمتها، جاك يكتشف كنوزا من الحزن واللذة. لأنه يحبها هكذا غامضة، مستعصية الفهم، مجهولة، إذ إنها بهذا الشكل تتوافر له الإمكانية الساحرة ليحب من خلالها حلمه الشخصي...

في ظروف مختلفة، ومع تعود أفضل على البلد وعلى العرق العربي، ولو ابتدأ حبهما الغريب في بساطة وبلا تعقيد خاصة، لكان بإمكان جاك ربما أن ينظر إلى مباركة من زاوية أخرى...

شيئا فشيئا، استرجع جاك هدوءه وجرأته، ناسيا إنذار النقيب، والذي لم يعر تهديده أدنى اهتمام.

وبتلذذ راح يغرف من ينبوع الحياة.

ها خمسة أشهر مرت بسرعة منذ مجيئه، هو الآن يتكلم لغة الصحراء، يعرف هؤلاء الناس، الذين بدوا له في البدء غامضين، لم يكونوا في الحقيقة إلا أناسا مثل كل الناس، لا أفضل

ولا أسوأ، أناسا آخرين فقط. وبالتحديد هذا ما كان يحبه فيهم، أنهم كانوا مختلفين، لا يتصفون بتلك الفجاجة الثقيلة التي طالما مقتها في أوروبا.

لم يعد أفق الرمل الرمادي المطوق للمدينة الرمادية يشـجي جاك: لقد اتحدت روحه مع اللامتناهي.

في نعومة النسيم الممتعة، عند الفجر المشرق الجذلان، غادر جاك الأطلال. سـرور عظيم يشـرح صدره. كان يسير في فرح وحبور، في الشـوارع التي بدأت تسـتيقظ، ثمـلا تملأه الحياة والشـباب. وبدا له هذا البلد جديدا، كأن الغشاوة التي سربلت عينيه حتى الآن انقشـعت. وتراءت له الوادى في محيط كثبانها الثابت، مدينة ذات بهاء وإشراق لا شك فيه البتة.

آه مـا أروع البقاء دومـا هنا، وعدم الرحيل أبـدا! أن يؤدي مهمة رسـالته الشـاقة والمغرية في الوقت نفسه؛ ثم الانصراف في أوقات أخرى إلى عذوبة التأمل المرهفة، وأخيرا، وفي برودة الليل الاستسـلام الكلي إلى سـلطان ذلك الحب الذي لم يبحث عنه... لم يسـتطع جاك أن يقول رأيه في تلك المغامرة، في تلك المـرأة، وفيما ما سـينتج عن هذا الحلم الذي ارتسـمت معالمه؛ لم يرد أن يحلل أحاسيسـه، عندمـا أراد مصادفة أن يرتب في ذهنه انطباعاته الجديدة، تسـارعت أفكاره، متلبدة، سريعة حد التفكك، وفضل أن يظل هكذا يحيا بحزنه، وهدوئه الكبير الذي ما عاد شيء يعكره...

وتراءى له أن الأيام والشـهور بهـذا البلد تمر على مهل وفي انسـجام أكثر من أي مـكان آخر، لقد سـكنت عصبية مزاجه،

وعبقت روحه في صمت الأشـياء، في هدوء، وبلا وجع. ولاحظ أنه أصبح شـيئا فشـيئا ميالا إلى قلة النشـاط، ولكنه استسلم لذلك بتلذذ...

وعـزم علـى أن يطلب البقاء هنا دومـا، إذ إنه لم يحس بأي رغبـة في رؤية مدن وأناس من أوروبـا، ولا مـن الأرض الندية ولا من الاخضرار.

إنه يحب سـوفه المضطرم والمهيمن، ويرغـب في أن يقضي حياته على أرضه، على مهل، وفي هدوء بهي جليل.

توجس جاك خيفة عندما، في نصف شهر يناير تقريبا، طلب النقيـب مرة أخرى أن يحادثه. كان قائد الملحقة هذه المرة، باردا وعنيفا.

لقـد حذرتك عدة مرات، بأن سـلوكك لا يتفق مع مقامك ووظيفتـك. ليس فقط لم تقـم أي اعتبار يذكـر لنصائحي بخصوص علاقتك مع الرجال ومع زبائنك من الأهالي ولكنك ذهبت إلى إقامة علاقة مع امرأة من الأهالي، سيئة السمعة. لقـد اتخذتها خليلة لـك، تعيش معهـا، والآن تعلن علاقتك بهـا إلى درجة أنك تخرج في المسـاءات للتنزه معها. تقر بأن سـيرة كهذه مستحيلة. لذا أطلب منك أن تقطع هذه العلاقة التافهة والمسـيئة لهيبتك، ولهيبتنـا جميعا... أدعوك إلى أن تقطعها. هذا تصرف صبيانـي، ويجب أن ينتهي على الفور. وإلا أصبحنا مسـخرة. تدرك بسـهولة، كم هو مستهجن أن أكلمك على هذا النحو... ولكن اعذر لي قسـوتي. لا يمكنني البتة السـكوت على أمر كهذا... تدبـر الأمر! ترتاد المقاهي

المغاربية إلى جانب المقملين الذين عودتهم على عدم تحيتك... لك صداقات مشبوهة مع رجالات الدين الإخوان... وهذه العلاقة، هذه العلاقة التافهة!

وانتفض جاك محتجا.

لم يعد سيدا حتى على حياته الشخصية، وأفعاله خارج الخدمة! ولمَاذا هناك في البرج، للضباط الآخرين زنجيات، هدايا من رؤساء أهالي... ولماذا آخرون يأتون هنا ببغايا أوروبيات شنيعات، خرجن من أوساط رديئة من الجزائر أو قسنطينة، واللائي يتربعن على مطعم الضباط، على الدائرة وحتى المكتب العربي، ويطالبن بأن تؤدى لهن التحية من أكثر الأهالي احتراما ويطيعهن حتى رجال الفرقة!

هذا لا يلوث سمعة وشرف الضباط بأية حال من الأحوال... الزنجيات لسن سوى خادمات، هذا كل شيء. ولا يجب أن تهول من الأمر. أما بالنسبة للأوروبيات، فالعلاقة مع إحداهن لا تستوجب اللوم، وطبيعي جدا أن يلزم الأهالي سواء المدنيين أو العسكريين بالاحترام المطلق للفرنسيات. يمكنك أن ترى بنفسك الفارق الموجود بين علاقات هؤلاء الضباط غير المؤذية وعلاقتك الشاذة والمسيئة لهيبتك ومركزك.

- علاقتي، بكل تأكيد، أكثر أخلاقية وإنسانية، حضرة النقيب.

على كل حال سأكف عن هذه المناقشة المتعبة، وبما أنك تريد إرغامي، وجب علي أن أخطرك، أنه في حالة ما إذا لم تغير كلية من نهج حياتك، وأسلوب تعاملك، إذا لم تتقيد بالأعراف التي

يمليها العقل وضرورات الاحتلال، فسأضطر مرغما أن أطلب من رؤسائي تنحيتك من منصبك.

كان جاك يعرف طبع النقيب الحاد والمتشدد، لكن لم يخطر على باله هذا الاحتمال المخيف الآن. عاد إلى غرفته وبقي متسمرا مذعورا. هل يغير حياته، ويصبح كالآخرين، يلغي شخصيته، ومبادئه، يتحول إلى آلة ميكانيكية؟ هل يعدل عن المهمة النبيلة التي ابتدأها... ويخرج مباركة من حياته... باختصار أن يلغي ذاته... فلم إذن، بعد هذا البقاء في هذه المدينة، التي ستغدو سجنا كبيرا.

وتراءت له ضرورة رحيله قاسية، مثل انتزاع جزء من روحه وجسده.

لا، لن يرضخ أبدا، سيظل ذاته...

واجتاح قلبه انزعاج موحش. لكن وبكل شجاعة لم يغير شيئا من نمط حياته.

ألم آخر كان بانتظاره. فقد لاحظ أن أصدقاءه من رجالات الدين وكبار الأهالي يتحرجون في حضرته، ولا يسعدون بزياراته كما في السابق، لا يحاولون إمساكه، واستمالته. لقد أصبحوا فاترين وموقرين. بالمقهى، وعلى الرغم من اعتراضه، يقفون لتحيته، وتتفرق الجماعات عند قدومه.

لقد تهشم سحر حياته... ومن جديد أصبح غريبا... أيقظ شيء ما خفي وخبيث كل الشكوك وكل المخاوف.

وانهارت مهمته، غير المنتهية على نحو محزن، فجأة مرمية على الأرض بكل خشونة وقسوة...

أصبح المرضـون تهكميين في وضوح، واتسـمت معاملتهم، أحيانا، بدلا من طيبة القلب المنشرح التي زرعها فيهم - بالوقاحة وشبه الازدراء.

الأصدقـاء، رفقاء النزهـات البعيدة، فرسـان الأهالي، المكتب العربي، كلهم تحصنوا بصمت ثقيل، وبالخضوع الفاتر للأيام الأولى.

بقيت مباركة

لكن يقين ذلك الحلم الذي ترعرع منتشـيا منذ نصف سـنة انتهى، انهار كل شيء، وحط احتضار سعادته، مكدرا عليه هدوء منزله الطللي الفاتن.

كان جاك يقضي السـاعات المريرة في التفكير في تلك الأيام السعيدة، الملغاة إلى الأبد، وفي أسباب فشله.

كان يدرك أنـه يكفي للنقيب ولمعاونيـه أن يذكروا أمام كبار الأهالي كم أنهم يسـتنكرون سيرة الطبيب، وكم هو غير مرغوب في علاقاته الاجتماعية كي يكونوا مرغمين في رضوخهم المطلق على تركه...

وانفجر حزن شـديد في قلب جـاك. لقد عجل حدث طارئ بانهيـار كل ما شـيده من أجـل أن يعيش فيه ويفكـر به. كانت مباركـة تذهب أحيانا لزيارة صديقة لها، متزوجة في المصاعبة، وفي استهتار وطيش الرعاع، أبقت على وجهها سافرا.

وفي إحدى المسـاءات وهي عائـدة من ذلك الحي البعيد عن حيها، شُـتمت مـن طرف عمر بن ضيف الله مسـير الماخور... وردت مباركة بعنف وبلا خوف... وتدخلت نسوة الماخور، فاقتاد البوليس مباركة على السجن...

وبحجة الدعارة المخالفة للقانون، سـجنت خمسة عشر يوما وقيدت بالسـجل. احتج جاك بعنف، مغتما وهو يرى حلمه يمرغ بالطين.

آه! لعنك الله، هي عشـيقتك؟ لم أكن أعلم بأنها هي... آه كم هـذا مزعج! صاح النقيب. لكنك ترى أنني كنت على حق عندما حذرتـك! يا لها من فضيحة... الآن، الكل يتحدث عن عشـيقة الطبيب. ما العمل الآن؟

«لن أسـتطيع أن أردها إليك، ذلك أنه بعـد هذه الحادثة لو عدت إليها، فستكون الفضيحة المجلجلة. آه! لو استمعت إلي»!

رد جاك وهو يرتعد من شدة الانفعال والغضب:

إذن، ستتركها بالسجن... إلى متى؟

تعلم أن الدعارة مقننة بشدة... هذه المرأة، لا يمكنها الخروج من السجن إلا للدخول إلى الدار العمومية.

لم تعد عاهرة وهي تعيش كزوجة معي.

لقد وجدناهـا بجانب الدار العمومية، سـافرة الوجه، وهي تحدث الشـغب الشـائن... لقد قبض عليهـا... المعلومات التي بحوزتنا عنها تؤكد أنها لم تتوقف عن ممارسة مهنتها الساقطة... تعقل يا حكيم. هذه المرأة لا يمكن أن ترد إليك، لمصلحتك... أرى أنك رومانسي فوق اللزوم... ماذا يمكنني أن أفعل، كن عاقلا!

تعصب الطبيب، لكنه كان يحاول أن يحافظ على نبرة متأدبة، متلطفة...

ثم فجأة، وقد أتعبته تلك المناقشة السمجة، اتخذ جاك قرارا، الوحيد الذي بقي له.

إذن، حضـــرة النقيب ســـأطلب - واليـــوم، ببرقية - تحويلي لأسباب صحية...

لمعت في نظرات النقيب العصية على السبر، ومضة فرح.

أنـــت محق ربما. أدرك كم كان مقامك بالوادي متعبا وشـــاقا بأفكارك، التي لن أشـــك في أنها ســـتتغير قريبا... ســـنفتقدك بالتأكيد كثيرا، لكن الرحيل أفضل بالنسبة إليك.

نعـــم، أخيرا ســـأغادر وأنا علـــى يقين تام، راســـخ من الآن فصاعدا، بالفســـاد المطلق والخطر المتفاقم لنظام إدارتكم الذي سيمس القضية الفرنسية.

هـز النقيب كتفيه:

لكل أفكاره، يا حكيم... في النهاية أنت حر.

نعم، أريد أن أكون حرا!

وأنتظـــر بفارغ الصبـــر الأمر بمغادرة هـــذا البلد الذي أحبه كثيرا. والذي كنت أتمنى البقاء فيه أبدا.

والغريـــب، أنه منذ أن عرف أنه ســـيرحل بدا لجاك أنه غادر فعلا ســـوف، وأن هذه المدينة وهـــذا البلد الذي يمتد هنا حوله، مثل أي مدينة أو بلد آخر، لكن بالتأكيد ليس سوفه المتألق المشرق الموحـــش... كان ينظر إلى تلك المشـــاهد الطبيعية بالإحســـاس الحالم والفاتر نفسه الذي نشعر به ونحن نشاهد ميناء مجهولا، حيـــث لم ولن نذهب أبدا، من على جســـر باخـــرة، أثناء توقف قصير.

اســـتطاع بواسطة هدية للشاوش أن يدخل للحظة إلى زنزانة مباركة... كانت له خيبة جديدة أخرى، فقد اســـتقبلته بوابل من

اللــوم المرير، والدموع، والنحيب. إنه لا يحبها، وهو ضابط يقدر على كل شيء، تركها تسجن، وتقيد بالسجل... شتمته، مستغلقة، عدائية إلى الأبد هي الأخرى.

غادرها جاك.

ها انتهى كل شيء...

كان يرغــب في أن يرى مــرة أخرى على الأقل منزل الأطلال الصغير، حيث عاش السعادة الحقيقية.

لأنــه الآن وحيــد، ولأن كل ما اعتقد أنه متــين ودائم أصبح يشــبه الآن هذه الأطلال الغامضــة، الرمادية، عديمة الجدوى! كان جاك يتألم. مستســلما سيرحل، لأنه أحس بأنه لا يستطيع أن يبتدئ هنا ثانية حياة تافهة، مفرغة من أي معنى.

تحت ســماء الربيع الرحبة، الصافيــة والمضيئة، تحت ضنى الصيف الثقيل، تمتد كثبان سوف متموجة، لازوردية في الأمواج البعيدة... أحب جاك أن يغادر المدينة التي أحب، في الوقت الذي أحب، عند غروب الشمس. وللمرة الأخيرة كان جاك يشاهد كل ذلك الديكور الذي لن يره أبدا، وانقبض قلبه.

للمرة الأخيرة، كان مشــهد الفتنة الكبرى للمساءات المشرقة يمر أمام عينيه الطافحتين بالحنين...

عندمــا مــر على كثيب ســي عمــر الكبير، وتــوارى الوادي خلف الجدار الشــاهق للرمل القرمزي، أحس جاك باستســلام حزين يبعث الســكينة فــي قلبه... إنه هادئ الآن وهو يشــاهد الضيعات الصغيرة الحزينة، والزرائب الصغيرة المبنية من سعف النخيل، المنــازل ذات القباب، تتمدد بإفــراط الظلال الضاربة

للون البنفسجي لجوادي الفارسين وقد احمرا في ضوء المساء الأحمر.

وخطرت بباله فجأة فكرة أن الأمر بلا شك قدر على هذا النحو، أن تجهض كل مشاريعه هكذا، وأن تنتهي أحلامه هكذا، وأن يرحل منفيا، مطرودا تقريبا من كل أماكن الأرض التي يذهب إليها كي يعيش ويحب.

فعلا، لم يكن يشبه الآخرين، ولم يرد أن يطأطئ رأسه تحت نير رداءتهم المستبدة.

تاعليث

كأنهــا تعيش حلما جميــلا، تذكر تلك الأيام الســعيدة، تلك التي قضتها بين أحضان ســفوح التلال النشــوى التي ســربلتها الشمس رداء ذهبيا، هناك في أسفل تلك الجبال الشامخة التي تشــقها المضايق الســحيقة والمنفتحة على دفء الأفق الأزرق... كانــت هناك غابات الصنوبر والبلوط العــذراء، صامتة متوعدة وشــجيرات كثيفة صغيرة تتصاعد منها أنفاس حارة في صفاء الخريــف وثمالة الربيع العنيفة... كانت هناك شــجيرات الرند الخضــراء، ونبات الغار الــوردي ذو النجمــات يحضن ضفاف الأودية الهادئة وعبر بســاتين التين والزيتون... يرسل السرخس الشــفيف ضبابه الخفيف على الصخــور الحمراء المبقورة قرب شــلالات الجوهــر، فتنبعث المجاري جذلانة تحت الشــمس، أو تصرخ مدوية في ليالي الشتاء المخيفة.

راعية غنم كانت.. طليقة نشــوى.. كم مرحت هناك وســط حمام من الضياء المنعش السرمدي، أطرافها القوية عارية تقريبا تحت الشمس.

ها هي الآن تذكر - ورعشــة تعتريها - حفل الزفاف البهيج، حين زفوها للرزقي أو السعيد ذاك الصياد الوسيم الذي أحبت.

وبدا لها، وهي تسترجع تلك الذكريات، أن تلك الأيام الخوالي قــد انقضت بلا همــوم وبلا أحزان، وكل ما فيها تعطر ببلســم عذوبتها.

وها قد حطت ساعات الألم الدكينة رحالها.

فجأة، تهشم كل شيء.. دُكَّ دكا.. تبدد، كما تبدد الريح زوبعة عابرة على الدرب الظليل. في إحدى الليالي أودت طلقة بندقية بحياة الرزقي.. أطلقها لصوص خيول... كان حدادا فظيعا.. حداد الروح والدم.. حداد اقتلاع.. وجنون تمزيق الفساتين، وندب الخدود الدامية وشد الشعر المبعثر.

صرخت كما تصرخ إناث البراري المتوحشة ولذعة الرصاص تخترق روحها...

وها بعدها أطفأ والدها شمعته للأبد.. ذات شتاء بارد مفعم بالبؤس والفقر والخوف، أثناء العاصفة التي ألقت أثقال ثلوجها على سقف القوربي[1] الكوخ الآيل للسقوط... وبعد شهور تزوجت زوينة أم تاعليث من تاجر انتقل بهما راحلا إلى مدينة الجزائر العاصمة.

وها هي تاعليث الآن سجينة هناك، داخل ذاك الديكور العربي المغلق كأنه سجن عالية أسواره المطلية باللون الأزرق الباهت، مسيج بصف من أعمدة كأنها أعمدة دير، وسط قهر مدينة الجزائر التركية والعربية الباعث على القلق، والتي كلها ظلمة وريبة قاتلة... كانت تختنق هناك في ظل ذاك الظل المؤذي بين نساء يتكلمن لغة أخرى يسمينها تهكما القبائلية.

هناك، ابتدأت قصة أخرى مع عذاب جديد آخر: فزوج الأم يريد أن يزوجها ثانية، يهبها لشريكه الذميم الطاعن في السن. وثار جسد المرأة العاشقة على هذه الزيجة، رفضتها بكل عنفوان.

أنا أحب الرزقي

---

(١) القوربي Le gourbi: هكذا بالفرنسية في النص الأصلي، وهي كلمة باللهجة الجزائرية تعني الكوخ.

كانـــت تجيب أمها حين تحدثها عن شـــبابها وجمالها لتحثها على القبول.

تلـــك كانت الحقيقـــة. لقد أحبـــت الزوج الحبيـــب المتوفى، ومازالت جوارحها تحفظ ذكراه اللذيذة المخضبة بالألم العذب.

أمام إلحاح أمها المثير للغضب وخشـــونة زوج أمها الذي كان يضـــربها بقســـوة، أحســـت تاعليـــث بأن مقـــاومتـــها اليـــائسة بلا جدوى. ثم أليست تحب الميت؟ ألم تكن مخلصة له؟ ألا تحس بأنها وحيدة وغير قادرة على الحب ثانية؟

وجهها الأســـمر، ذو العينين الواسعتين اللتين تشبهان اللمسة الحزينة، والجبين الموشـــوم والشـــفاه العذبـــة، تصلب وانكمش، تماهى إلى نحول مرضي. ولمع بريق غريب في نظرتها الداكنة.

ذات يوم قالت لزوج أمها:

إذا كان هذا قدري، فأنا طوع أمرك...

وظلـــت تنتظر في صمت أكبر من ذي قبل وشـــحوبها يتفاقم أكثر.

وكانـــت الليلة الأخيرة قبل موعد الزفاف، وبعد أن هدأ الليل وخفت ضجيج صبايا البيت، كانت تاعليث ووالدتها وحدهما.

أماه! همست تاعليث وبســـمة غريبة تعلو شفتيها، أرغب في أن تلبســـيني وأن تزينيني كما سأكون غدا، كيما أرى هل مازلت أبدو جميلة وأنا التي ذبلت عيناها جراء البكاء.

ســـعيدة بما اعتقـــدت أنه تجدد فرح صبيانـــي، راحت زوينة مســـرعة تلبس تاعليث أقمصة الشاش المفضض و«قندورات»[1]

---

(١) قنـــدورات gandouras: هكذا باللاتينية في النص الأصلي كلمة جزائرية وتعني فســـتان البيت أو فستان العرس أو جبة وغالبا ما تكون مطرزة وهي الجلابية أيضا.

فساتين الحرير فاتحة الألوان، والمناديل اللامعة... وتابعت تثقلها بكل حليها القبائلية: على رأسها ذي الشعر الطويل المصبوغ، وتثبت تاج الفضة المزين بالمرجان، وتحيط جيدها العاري النقي بعقد من زجاج ومن قطع ذهبية ومرجانية على الطوق المرصع. ثم شدت خصرها المشوق بحزام فضي وقلدت معصميها المدورين بأساور، وكعبيها بخلاخل رنانة.

وغمر طوق من العجين المجفف الفواح جسد تاعليث بأريج دافئ، وجلست زوينة القرفصاء تلفها بنظرات حانية وهي تكرر:

ما أجملك يا عين الغزال!

تناولت تاعليث مرآتها وظلت تنظر إلى نفسها ونشوة غامرة تعتريها طويلا طويلا إلى درجة أن زوينة غفت عيناها.

وإذ ذاك تجردت تاعليث من خلاخيلها الرنانة وخرجت إلى البهو بيضاء.. ناصعة البياض تحت الضياء المائل للقمر والمنزلق على البلاط تاركا الأعمدة في الظل الأزرق.

وهمست تاعليث كما لو أنها في حلم:

لا بد أن الوقت تأخر!

محمومة، مرتعشة، وضعت جبينها الملتهب على المرمر البارد لأحد الأعمدة...

واعتراها ألم لا يطاق، وهزت جسدها دفقة من بكاء أخرس من دون أي عَبرة. قرقعت حلي المرجان التي تزين تاجها على الحجر قرقعة خفيفة... ارتعدت تاعليث واستوت من جديد شاحبة.. في غاية الشحوب.

محمومة، مرتعشة، وضعت جبينها الملتهب على المرمر البارد لأحد الأعمدة...

واعتراها ألم لا يطاق، وهزت جسدها دفقة من بكاء أخرس من دون أي عَبرة. جلجلت حلي المرجان التي تزين تاجها على الحجر جلجلة خفيفة... ارتعدت تاعليث واستوت من جديد شاحبة.. في غاية الشحوب.

كانت البئر العربية في زاوية تغفو هوَّةً ضيقة بلا قاع. انحنت لحظة على السر الدكين للثقب... ثم استقامت وصعدت على حافة البئر القديمة. في لحظة بدت في ذلك الوضع مستقيمة جدا تحت ضوء القمر، كمعبودة فضية. أغمضت عينيها، همست بكلمات تقية من صميم الإسلام، حركت شفتيها وتهاوت في الظل السحيق، تتبعها هفهفة الحرير وجلجلة الحلي.

ارتطام أخرس، بقبقة بعيدة: يلعق الماء الأسود المارد الجدران الغروية... ثم لا شيء.. الصمت الرهيب.

تاعليث المزدانة عروسا اختفت.

اتهمها الجميع بالفرار إلى مواخير القصبة لتبيع الهوى. لكن زوينة الحائرة، الشائخة أدركت الحقيقة، وتوسلت حتى ينزلوها بحبل إلى قاع البئر. وأمام إلحاحها الذي بدا كأنه الجنون، أمرت السلطات بغلق البئر. وهكذا اقتلعت زوينة أظفارها ولحم يديها على الصخر وهي تصرخ لأيام الاسم العزيز:

تاعليث!

بحثوا عنها في الخارج بلا جدوى. فقرروا فتح البئر من جديد، تدلى رجل على القعر ليجد تاعليث تطفو فوق الماء...

أخذوا الجثة.. وضعوها على البلاط الأبيض فأنارت شـــمس الأصيل الســـحرية ومضات وردية الجواهـــر التي لم تزل تطوق ذاك الجســـد المنتفخ المخضر وكل تلـــك القذارة الكريهة التي لم تكن إلا تاعليث.

اليـد

هي ذكرى تعود إلى أربع سنوات خلت عن مدينة سوف القاسية والمؤتلقة، عن تلك الأرض المتعصبة والرائعة التي عشقت، والتي كادت تأخذني إلى الأبد، في إحدى مقابرها المفتوحة على الفضاء الرحيب والخالية من كل حزن وأسى.

كان الوقت ليلا، بشمال مدينة الوادي على طريق البهيمة كنت وأحد فرسان الأهالي المجندين بالجيش الفرنسي عائدين من سباق للخيل إلى إحدى الزوايا البعيدة، والصمت يخيم على كل المكان.

آه من الليالي القمرية تلك على صحراء الرمال، ليال وهل تضاهيها ليال روعة وسحرا وغموضا؟

فوضى الكثبان الرملية، والأضرحة والصورة الظلية لمنارة سيدي سالم البيضاء المطلة على المدينة، كل شيء يتلاشى، ينصهر يتبدد ويأخذ مظاهر شفافة وخيالية.

الصحراء حيث تنساب الأضواء الوردية، والأضواء الخضراء الشاحبة والأضواء الزرقاء، وانعكاسات الأضواء الفضية، هي ذي الصحراء تسكنها الأشباح، لا كخطوط كِفافية واضحة ودقيقة، ولا أشكال جلية في سطوع وتلألؤ الرمال الغامر.

كانت الكثبان الرملية البعيدة تبدو بخارا قد تجمع في الأفق والقريبة تتلاشى في السطوع اللامتناهي المنسكب من السماء.

مررنا في درب ضيق على وهدة رمادية صغيرة وقد زرعت حجارة مستقيمة: مقبرة سيدي عبد الله.

كان الجـــوادان يتقدمــــان دون إحداث أي جلبـــة فوق الرمال الجافة والمتحركة. فجأة لمحنا شـــكلا أسود ينزل المنحدر المقابل للوهدة متجها نحو المقبرة.

كان الشـــكل امرأة وقد تســـربلت بلحاف السوفيات(١) الأسود المصنوع من الجوخ الإغريقي.

مندهشين، قلقين توقفنا ورحنا نتبع خطواتها بأعيننا.

أملودان استقاما على تلة يؤشران لقبر حديث جدا.

جلست المرأة على ركبتيها بعد أن اقتلعت النخلتين الصغيرتين وقـــد بدا وجهها الآن في ضوء القمر منكمشـــا تعلوه تجاعيد الســـنين. وراحت تحفر بسرعة بيديها وســـط الرمل كأنها أحد حيوانات الصحراء الحفارة.

كانت تؤدي مهمتها تلك بهمجية غريبة.

وانفتح الثقب الأسود سريعا على نومته وتعفنه المجهول الذي يخفيه.

وأخيرا انحنت المرأة على القبر الفاغر فمه. وحين استقامت، كانت تحمل إحدى يدي الميت وقد قطعت على مســـتوى المعصم، يد مسكينة جاسئة متيبسة وشاحبة.

وعلـــى عجـــل، ردمـــت العجوز الحفـــرة وأعـــادت الأملودين الأخضريـــن، ثم أخفت اليـــد المقطوعة تحـــت لحافها واتخذت طريق المدينة قافلة.

مذعورا لاهثا أخذ الفارس بندقيته وجهزها للرمي.

أوقفته قائلة:

لماذا؟ أيهمنا هذا الأمر ؟ الله وكيلها!

---

(١) السوفيات: نسبة إلى وادى سوف إحدى مدن الصحراء الجزائرية.

آه! إلهي، إلهي. راح يكررها الفارس مصدوما.

دعيني أقتل عدوة الله وعدوة عباده!

خبرني قبل ذلك ما الذي يمكنها أن تفعله بهذه اليد ؟

آه، لا تعلمين! إنها ساحرة ملعونة. بيد الميت ستعجن خبزا. ثم تطعمه بعض التعساء. ومن تناول طعاما أعد بيد ميت مأخوذة ليلة جمعة يكون فيها القمر بدرا، يتجفف قلبه ويموت موتا بطيئا. سيغدو باردا غير مكترث بالحياة وسيستولي على روحه ضيق رهيب .ثم يذبل ويموت. فليحفظنا الله من هذي الشرور!

وفي شعاع الليل الهادئ اختفت العجوز، إلى مهمتها الظلامية[1].

وفي صمت غامر اتخذنا طريقنا باتجاه مدينة الألف قبة؛ قباب صغيرة ودائرية يخيل للرائي من أفق لآخر أنها امتداد لظهر العرّق العملاق، مدينة عملاقة من مدن ألف ليلة وليلة الشفيفة وعفاريتها وسحرتها.

(١) هناك نسخة أخرى مخطوطة عن هذه القصة معنونة بالغولة La Goule.

المترجم في سطور

حسن دواس

- من مواليد ١٩٦٦ - الجزائر.
- خريج معهد اللغات الحية الأجنبية، قسم اللغة الإنجليزية بجامعة قسنطينة، حاصل على شهادة الماجستير في الأدب المقارن، شعبة أدب الرحلة، جامعة قسنطينة، ويحضر حاليا دكتوراه في النقد.
- عمل بالتعليم الثانوي، أستاذا للغة الإنجليزية، ثم رئيسا لمكتب دعم الإبداع والفنون بمديرية الثقافة لولاية سكيكدة، ثم مديرا للمركز الثقافي جمال رمضان، سكيكدة.
- عضو في العديد من الجمعيات والروابط الثقافية، وترأس المكتب الوطني للترجمة برابطة إبداع الثقافة، سكيكدة، من العام ١٩٩٥، ورئيس المكتب الولائي لرابطة إبداع الثقافة الوطنية.
- حاصل على العديد من الجوائز.
- لـه العديد من الإصدارات في أكثر من مجال مثل: الشعر، أدب الطفل، الترجمة والدراسات.
- شارك في العديد من الملتقيات والندوات الأدبية والفكرية الوطنية والعربية.

المراجع في سطور

د. ليلى عثمان فضل

- من مواليد العام ١٩٥٠.
- أنهت دراستها الجامعية في العام ١٩٧٢، حاصلة بذلك على ليسانس في آداب اللغة الفرنسية بجامعة عين شمس - كلية البنات - جمهورية مصر العربية.
- حازت درجة الدكتوراه في العام ١٩٨٥، وكان موضوع أطروحتها «التجربة الإنسانية في الرواية الفرنسية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. مرحلتا الطفولة والمراهقة».
- عملت أستاذا للغة الفرنسية بجامعة الكويت.
- راجعت عدة أعمال لسلسلة «إبداعات عالمية» منها: «مختارات شعرية من السنغال»، «طام طام زنجي» تأليف ليوبولد سيدار سنغور، ورواية «عشيق الصين الشمالية» تأليف مارغريت دوراس.

الفهرس

إبداعات عالمية

ياسمينة
(وقصص أخرى)

نقدم للقارئ الكريم في هذا العدد مجموعة قصصية، ذات طابع عربي إسلامي أفريقي لمؤلفتها الروائية الرحالة الفرنسية إيزابيل إبرهاردت (ولدت العام ١٨٧٧ في جنيف، وتوفيت العام ١٩٠٤ بالجزائر).

تتمتع هذه المجموعة القصصية المميزة بجاذبيتها وتأثيرها الساحر في كل من يقترب من قراءتها، نظرا إلى كثرة ترحال الكاتبة إيزابيل بين فرنسا وروسيا والجزائر وكيفية إسلامها وزواجها من عربي مسلم على الرغم من ديانة أبويها النصرانيين.

وهذه المجموعة القصصية التي تضم القصص التالية: «الغريمة»، «نحيب اللوز»، «ياسمينة»، «النقيب»، «تاعليث»، «اليد» تتباين مواضيعها وتختلف، حيث تحاول من خلالها إيزابيل رصد الحياة وعادات المجتمع الجزائري وأحلامه وآماله ومعاناته. كما أنه من الملاحظ أن قصصها غالبا ما تبنى على ثنائيات متناقضة متعددة، كالتقاء حضارتين - الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية - المستعمِر والمستعمَر، العامل ورب العمل، رجل الدين والمريدون، البؤس والسعادة، وغيرها من الثنائيات.

ونأخذ على سبيل المثال قصة «ياسمينة»، فهي تتناول قصة حب تعالج من خلالها التقاء الغرب في شخص الضابط جاك بالشرق الممثل في شخصية ياسمينة، وفي الوقت نفسه هو التقاء واختلاف المستعمِر والمستعمَر في نمط الحياة والتفكير، وهو الصراع القائم بينهما.

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٧٧
ردمك: ٩-٣٦٩-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨